عيون على السماء



الرواية حائزة
على المركز الأول
عن جائزة أبها للثقافة
عام ١٤١٨ هـ

دار الكفاح للنشر والتوزيع KIFAH

قماشة العليان

رواية

Monday
4/6/2012
Riyadh

عيون على السماء

في فندق ماريوت في قلب باريس جلست تطل من نافذة حجرتها على مسبح الفندق .. إنها مشدوهة بكل ما تراه .. الناس .. المحلات التجارية .. الطبيعة .. الجو .. إنها لم تر مثل هذا في حياتها أبداً .. ولكنها لا تستطيع أن تستمتع بما ترى .. وسألت نفسها بصمت .. ترى لو كان عماد هو رفيقها في هذه الرحلة .. هل ستحس لها طعماً آخر؟

انتبهت على صوته .. إنه يحدثها ؟

- هدى .. إنني أراك متحجبة وهذه مسألة متروكة لك، ولكن إذا أردت أن تخلعي حجابك فأنا أرحب بذلك ..

نظرت إليه بحنق وهي تقول بحسم:

لن أخلع حجابي أبداً .. وأرجو [illegible] أي كلام في هذا الموضوع مرة أخرى ..

أدهشته لهجتها العادية، فقال لها برفق [illegible]

- إنسي موضوع الحجاب .. هل أنت مستعدة للخروج بعد قليل؟.

أومأت بالإيجاب .. وارتدت بذلتها البيضاء الناصعة مع حجابها الأبيض مما أضفى عليها هالة نورانية، وكأنها مخلوقة شفافة من زجاج ..

أنيس منصور

من أوراق السادات

كتابنا القادم



دار المعارف

قماشة العليان

عيون على السماء

(رواية)

الناشر
دار الكفاح للنشر والتوزيع

جائزة أبها

شهادة استحقاق

إن لجنة **جائزة أبها** بعد الاطلاع على نتائج الجائزة لعام ١٤١٨هـ
توافق على منح الأستاذة/ قماشة عبد الرحمن العليان
جائزة أبها للثقافة للمركز الأول في مجال الرواية
وبالله التوفيق

رئيس لجنة الجائزة
خالد الفيصل بن عبد العزيز

إهـــداء

إلى كل رجل و إمرأة عاشوا بالصدق والتفاعل مع أزمة الشعب الكويتي البطل... وشارك بكل شيء يملكه في تحقيق نجاح وسعادة وفرحة الكويتين بالعودة إلى وطنهم حراً كريماً كما كان...

إلى المرأة الكويتية التي عاشت هذه الأزمة بقلبها وعقلها و تحملت أذى تفكك الأسرة و تشردها لتعود فيلتم الشمل ، وتعود الأسرة الكويتية معطاءة فاعلة في هذا المجتمع العربي...

إلى أحبائي وقرائي في كل مكان...

قماشة

مقدمة الناشر

لا يسعنى إلا أن أقدم للقراء الأعزاء والباحثين الأحبة .

هذه الأديبة العربية التي نسعى جاهدين لإعادة نشر اعمالها لكم في هذا الزمن .

الناشر

عيون على السماء

فتحت عينيها ببطء شديد، ثم نهضت من السرير ببطء أشد ومضت تجر رجليها إلى الحمام، وهناك تذكرت بوضوح ما حدث البارحة.. سيزوجونها رغماً عنها.. ولكن لا.. صرخت بصوت مشروخ: "لن أدع أحداً يتحكم بمستقبلي.. مستقبلي ملكي وحدي" خرجت من الحمام، وقلبها ينبض بقوة التحدي والتصميم، ثم دخلت حجرتها وأغلقت الباب وراءها بالمفتاح، وعزمت على ألا تفتح هذا الباب مهما يكن من أمر حتى يتراجعوا عما قرروه في شأنها.

ومرت الساعات وهي تنظر بحماس.. تحول حماسها إلى نوع من الغضب.. لماذا لا يأتي لها أحد؟ لماذا لا يطرق أحد باب حجرتها، ويرجوها أن تفتحه؟ ما هذا البرود الشديد منهم؟.. أين أمها؟

وهنا تذكرت.. بالتأكيد والدتها خرجت من البيت.. ووالدها بالطبع في عمله.. وأخوتها جميعاً في المدارس.. إذن ماذا تنتظر؟.. من سيطرق بابها؟ قررت أن تخرج لتأكل شيئاً ثم، تعود قبل أن يعود أحد منهم، وستغلق باب حجرتها من جديد.

وما أن فتحت باب الحجرة، حتى قابلها وجه أمها وهي تنظر إليها بقلق شديد.. لم يعد هناك بدٌّ من الخروج.. لا مفر.. قالتها لنفسها وهي تسير نحو المطبخ.

لحقت بها أمها وهي تسألها:

ـ هدى.. ماذا حدث لك؟

صرخت في وجه أمها بقوة:

ـ أنت تعرفين جيداً ماذا حدث لي.. قلتها مراراً وتكراراً.. لن أتزوجه.. لو انطبقت السماء على الأرض.. لن أتزوجه.

ردت أمها بهدوء:

ـ هذا ليس منطقاً.. تعبنا أنا وأبوك في إقناعك.. إنه رجل ممتاز.. ولن..

صرخت هدى:

ـ ولن أجد مثله أبداً.. وهو الذي سيسعدني، وهو أفضل من هؤلاء الشباب الصغار الذين لا يعرفون كيف يسعدون زوجاتهم.. أعرف.. سمعت هذا الكلام مليون مرة، وحفظته عن ظهر قلب، ولكن لا.. لن أتزوجه.

قاطعتها أمها بصوتها الهادىء الرزين:

ـ حبيبتي.. أنت لا تعرفين مصلحتك.. أنا وأبوك أدرى منك بهذا.. لذلك أطلب منك فقط أن تفكري في الموضوع بهدوء وروية، وستجدينني وأباك على حق.

ردت هدى بحدة:

ـ لن أفكر دقيقة واحدة في هذا الموضوع.. قلت لكم لن أتزوجه.. وكفانا نقاشاً وجدالاً في موضوع عقيم.. ثم إنني لن أتزوج الآن.. أريد أن أكمل دراستي الجامعية، فأنا ما زلت في السنة الثانية.. وبعد سنتين سوف نرى هذا الموضوع مرة أخرى.

تكلمت أمها بصوتها الهادىء:

ـ ولكنه لن ينتظر سنة أخرى.. يكفيه أنه انتظرك حتى تفكري كل هذه الشهور الطويلة.. ثم إنه رجل ممتاز.. ولن نضيعه من أيدينا لمجرد خيالات صبيانية.. سوف تتزوجينه يا هدى شئت ذلك أم أبيت.

نظرت هدى إلى أمها، نظرة طويلة صامتة فيها عناد وتحدّ.. ثم عادت بسرعة إلى حجرتها وأغلقت الباب بالمفتاح، وأخذت تبكي بيأس.. وكل شيء فيها يبكي.. عيناها.. وشفتاها.. وقلبها..

وروحها.. وكل قطرة دم تسري في عروقها.. تبكي الغد.. وتبكي المجهول الذي تخافه وتخشاه.

في المساء طلبها والدها على عجل.. دخلت إليه غرفته وهي حائرة.. مضطربة.. عيناها زائغتان.. شفتاها ترتجفان.. وقد جفت دموعها من كثرة البكاء.

كانت تخاف والدها كثيراً.. وتحترمه أكثر مما تخافه.. وتحبه أكثر مما تخافه وتحترمه.. كان بالنسبة لها كل شيء منذ طفولتها.. فقد كانت البنت الوحيدة في الأسرة على خمسة أشقاء.. كلهم أولاد.. لذلك دللها والدها أكثر منهم جميعاً.. وكان دائماً يغرقها بالحب والهدايا الجميلة.. فأحبته أكثر من والدتها التي كانت دائماً حازمة معها.. ودائماً تعنفها على أي خطأ تفعله.. فنفرت منها، وفضلت والدها عليها.

تناهى إلى سمعها صوت والدها يناديها.. اقتربت منه ببطء، وجلست على أقرب كرسي أمامه قال لها بصوته الهادىء المتفهم:

- هدى.. أنت تعرفين معزتك عندي.. وتعرفين بأنني عندما أزوجك، فسوف أختار لك أفضل رجل في الدنيا.. رجل يسعدك قبل أن تسعديه.. ويحبك أكثر مما تحبينه.. رجل..

قاطعته بصوت مرتجف:

- لكن يا أبي أنا لا أريده..

نظر إليها نظرة حازمة وهو يقول:

- أرجو ألا تقاطعيني.. دعيني أكمل كلامي، ثم سأستمع لرأيك في النهاية.. إنني يا هدى لا أحاول إجبارك على شيء لا تريدينه.. ولكن هذا الرجل يعتبر فرصة نادرة.. من الغباء أن نضيعها من أيدينا.. ويجب...

قاطعته مرة أخرى:

ـ لأنه غني.. أليس كذلك؟

أجابها والدها بحدة:

ـ بالإضافة إلى ذلك، فإنه رجل محبوب.. وشخصية نادرة.. وأيضاً من عائلة عريقة ومعروفة.. كما أنني مدين له بالكثير.

نكست هدى رأسها بيأس، وهي تنظر إلى لا شيء.

تابع والدها كلامه:

ـ هدى يا حبيبتي.. إن كل ما أريده هو سعادتك فقط لا غير.. أرجوك فكري ملياً في الأمر، وأنا واثق بأنك لن ترفضي بالنهاية.

خرج صوتها مبحوحاً هامساً وهي تقول:

ـ سأحاول يا أبي.. سأحاول أن أفكر في الموضوع.

وأسرعت تسبقها دموعها إلى حجرتها.. وقفت أمام المرآة، ودموعها تسيل على وجنتيها.. وأخذت تتأمل وجهها من بين دموعها.. إنها جميلة.. بل رائعة الجمال.. بعينيها الواسعتين ووجهها المستدير كإستدارة القمر، تحيط به هالة من الشعر الأسود الحريري المسترسل حتى كتفيها.. وجسمها.. إنه صورة من إبداع الخالق فيما خلق.. أحست باليأس يخنقها.. لا مفر إن أباها مصر على زواجها منه.. وأمها متمسكة به وهي!!! حياتها.. أملها... مستقبلها.. وعماد.

دق قلبها بقوة وهي تتذكره.. بقامته الطويلة.. ووسامته وشبابه.. إنه يكبرها بثلاث سنوات فقط..

فكيف.. كيف تتركه وتتزوج من الآخر الذي تقارب سنّه سن أبيها.. بل قد يكبره في العمر.. ابتسمت بسخرية، وقلبها يموج بشتى الإنفعالات.. يا له من واقع مر رهيب.. تترك المستقبل وتعيش في الماضي.. تترك الشباب وتعيش مع الكهولة.. ومضت في ذهنها فكرة غريبة.. لمَ لا تنتحر!!؟

ولكنها استبعدتها بسرعة، فإنها لا تستطيع أبداً أن تقتل نفسها وتضحي بحياتها من أجل لا شيء وعماد..

عاد قلبها يخفق بقوة.. إنه ابن الجيران لم يرها أبداً.. ولم تره سوى مرة واحدة فقط، أعجبت به بشدة.. سمعت مراراً من أمه بأنه يبحث عن فتاة تناسبه في الثقافة والتعليم، وكانت تُسر كثيراً عندما تقول أمه بعد صمت طويل:

- إنه لن يجد سواكِ يا هدى، فأنت الفتاة الوحيدة التي تناسبه.

كانت تشعر بسعادة شديدة وهي تسمع هذا الكلام.. كانت تشعر بأنها تحلق بعيداً في الفضاء وتكاد تمس أحلامها البعيدة بيدها.

وكبرت أحلامها وآمالها.. وأصبح عماد هو حلمها الوحيد.. وأملها الذي تتمنى تحقيقه.. تحلم به في صحوها ومنامها.. وتراه في كل شيء أمامها.. حتى في مرآتها الصغيرة.. وفي مدرستها حكت لصديقتها فاطمة كل شيء عن عماد.. وعن حبها له من طرف واحد..

سكتت فاطمة.. وطال سكوتها.. ثم نطقت بحماس مفاجيء:

- هدى.. أنتِ غبية.. لماذا لا تحاولين لفت نظره إليك؟

نظرت إليها هدى بدهشة وهي مبهورة بفكرتها وقالت:

- ولكن كيف؟

تابعت فاطمة بسرعة:

- بسيطة.. ترسلين له خطاباً تضمنينه حبك وولعك به.

شهقت هدى وهي تقول:

- فاطمة .. هل جننت؟ وماذا يظن بي لو كتبت له مثل هذا الكلام.. إنه لن يتزوجني بعدها أبداً.. إنك لـ..

قاطعتها فاطمة:

ـ إنك لم تفهميني بعد.. أنا لا أقصد ذلك.. كل قصدي أن ترسلي له خطاباً بدون إمضاء بمعنى أصح، خطاباً بدون إسم.. بدون عنوان.. وبهذا نشغله.. نحيره.. نجعل عقله يدور في كل الإتجاهات وعينيه تسقطان على كل الوجوه.. وهنا يبدأ في التفكير.. ثم يراك وأنت تطلين عليه من نافذة بيتكم.. وهنا..

صرخت هدى:

ـ لا بد أنك جننت يا فاطمة.. وهل يعقل كلامك هذا؟. أطل عليه من النافذة.. وماذا يفعل بي أبي؟ يقتلني.. وأنا.. كيف أجرؤ على النظر في وجهه؟ وهو.. عماد.. ماذا سيقول عني؟. بالتأكيد سيعتقد بأنني فتاة حمقاء منحلة.. ماجنة.. أنت تعرفين جيداً بأنني عندما رأيته في المرة الأولى، كان هذا من وراء الباب حينما كان يتحدث مع أبي.. فاطمة بالتأكيد أنت مجنونة.

تكلمت فاطمة بهدوء شديد:

ـ رويدك.. رويدك يا هدى.. لقد فهمت خطأ.. أنا أقصد بأن يراك عن طريق الخطأ، وكأنك لم تتعمدي ذلك.. أنت تعرفين وقت ذهابه إلى الجامعة.. فاختاري الوقت الملائم لتطلي من النافذة وكأنك تبحثين عن شيء معين، فإذا وقعت عيناك عليه وتأكدت من أنه رآكِ.. فغطي وجهك بيديك، ثم انسحبي بسرعة، وكأنك خائفة وبهذا يتحقق المطلوب.. فربما يتجه تفكيره إليك ويظن بأنك صاحبة الخطاب المجهول.. وهذا كافٍ جداً ليقع في هواك، وبإمكانك أن تنكري صلتك بالرسالة بعد ذلك..

أطرقت هدى برأسها، وكلمات صديقتها تحتل كل تفكيرها.. نعم.. لماذا لا تجرب هذه الطريقة يجب أن تلفت نظره إليها بأية وسيلة حتى لو كانت وسيلة غير مشروعة.. ولكن.. إنها بهذا تسيء

إلى نفسها.. وإلى أخلاقها.. إنها أبداً لم تفعل ذلك طوال حياتها.. ولكن.. الضرورات تبيح المحظورات.. وجدت نفسها ذات ليلة تسطر خطاباً طويلاً يحوي أجمل عبارات الحب والهيام ومقتطفات من الشعر وجدتها في إحدى المجلات.. وترددت طويلاً قبل أن توقع في ذيل الخطاب.. وأخيراً كتبت بخط رقيق.. الإمضاء.. أسيرة هواك.

وفي الصباح نهضت مبكرة ووضعت الخطاب داخل جيبها الكبير.. تناولت إفطارها مسرعة وأخوها يوسف يصرخ فيها:

ـ هدى.. هيا بسرعة.. لن أنتظرك أكثر من هذا.. لقد تأخرت عن الكلية.. خمس دقائق وسأمشي..

جاءها صوت أمها من المطبخ:

ـ هدى.. لا تتأخري على أخيك، فعنده إختبار اليوم.

تكلمت هدى وفمها محشو بالطعام:

ـ حاضر.. حاضر..

في السيارة.. هدى جالسة في المقعد الأمامي، ترقب الطريق ويدها تعبث في جيبها وتفكر كيف توصله إليه.. إلى عماد.. هل تضعه في حقيبة أخته نورة دون أن تدري.. أم تعطيه لأخيه الصغير حسام.. أم تسلمه إلى خادمتهم.. وعصفت بها الأفكار.. حتى وصلت إلى الجامعة.. وما أن رأت صديقتها فاطمة حتى انتحت بها ركناً بعيداً، وأطلعتها على الخطاب.. أطلقت فاطمة صفيراً خافتاً من شفتيها إعجاباً بالخطاب ثم صرخت فرحة:

ـ هدى يا لك من شيطانة.. كيف كتبت كل هذا الكلام الجميل؟ إنني أحسد هذا العماد..

ابتسمت هدى وقالت:

ـ ولكن يا فاطمة مشكلتي كيف أوصله إليه؟ وعن أي طريق؟.

همست فاطمة بهدوء:

ـ بسيطة.. ترسلينه له عن طريق البريد.. بالتأكيد تعرفين صندوق بريده..

قالت هدى من خلال ابتسامتها:

ـ نعم.. نعم.. أنت على حق.. سأرسله له عن طريق البريد.. ومضى اليوم الدراسي ببطء شديد.. وفي طريق العودة إلى البيت، طلبت من أخيها يوسف أن يمر بطريقه على صندوق بريد لتبعث بخطاب إلى صديقة لها..

ضحك يوسف بسخرية وهو يقول:

ـ يا للفتيات.. كم هن حمقاوات.. ترى صديقتها كل يوم، وتبعث له خطاباً عن طريق البريد.. ومضى يضحك بسخرية.. وهدى ترمقه بغضب.. وأخيراً توقف أمام صندوق بريد كبير، وأخذ الخطاب بلا إهتمام وألقاه في الصندوق دون أن يلمح حتى العنوان.

إنها تعرف يوسف حق المعرفة، ولذلك طلبت منه هو بالذات أن يبعث بالخطاب.. فهو شاب نزق أحمق لا يرى أبعد من أنفه.

في البيت ألقت بنفسها على سريرها، وتنهدت بارتياح وعشرات الأسئلة تدور في مخيلتها.. ترى هل يصل الخطاب إليه؟ وماذا سيكون رد فعله؟ ترى.. هل سيتجه تفكيره إليها؟ أم أنه لن يفكر فيها بتاتاً؟.

أغمضت عينيها وهي تراه بعين خيالها ينظر إليها.. وسرعان ما غطت في سبات عميق..

يوم .. يومان.. أربعة.. أسبوع.. أسبوعان.. لا شيء.. لم يحدث أي رد فعل لديه.. إنها تراه كل يوم وهو يقود سيارته ذهاباً إلى الجامعة، وتراه وقت عودته.. ولم يتغير فيه شيء إنه كما هو.. لم يتغير أبداً.. وحاولت كثيراً بأن تطل من النافذة ليراها، ولكن.. أبداً.. إنه حتى لا يرفع رأسه إلى فوق.

وأحاطها اليأس بأسواره الشائكة.. وكرهت حبها الوحيد كما كرهت نفسها.. ولكن صديقتها فاطمة عرضت عليها فكرة أخرى..

قالت لها وهي تبتسم بخبث:

ـ هدى.. لم لا تحاولين أن تحادثيه عبر الهاتف؟.

صعقت هدى ونظرت إلى فاطمة وهي غير مصدقة.. وقالت:

أرجوك.. أرجوك يا فاطمة أبعدينا عن جنونك وتهورك.. تكفي الرسالة التي بعثتها له.. لن أكلمه في الهاتف.. ولم تحاول فاطمة أن تضغط عليها أكثر من ذلك، وتركتها تتخبط في حيرتها ويأسها وضياعها..

حتى جاء عريسها المنتظر، وأهلها مصرون على أن تتزوج منه رغم أنه يكبرها بكثير.. وفكرت بيأس أن عماد بعيد عنها الآن بُعد السماء عن الأرض ولن يفكر فيها بتاتاً.. كما أن هذا العريس ينتظر على أحر من الجمر.. وفي غمرة تفكيرها اليائس.. دخلت عليها أمها الحجرة وطلبت منها أن تغير ملابسها، لأن عريسها على وشك القدوم وهو يريد أن يراها.

جزعت هدى وصرخت بقسوة في وجه أمها:

ـ لن أراه.. لن أراه أبداً.. أجبرتموني جبراً على الزواج منه فوافقت.. ولكن أن أراه، كلا وألف كلا..

تكلمت أمها بهدوء كعادتها:

ـ ولكنك حتماً سترينه بعد الزواج.. وستجلسين معه وتأكلين معه.. وتنامين معه وتِـ..

غاص قلبها لمجرد التفكير في هذا الموضوع، فقاطعت أمها منهية الموضوع:

ـ حسناً حسناً.. سأراه وأمري للّـه..

اختارت فستانها الرمادي الطويل.. وأخفت شعرها الجميل بحجاب أسود.. ومسحت كل آثار المساحيق عن وجهها.. وخرجت إلى أمها في المطبخ.. ذعرت أمها وهي تراها على هذه الحالة فقالت بجزع:

ـ هدى.. لا شك أنك جننت.. هل أنت ذاهبة للعزاء أم ليراك خطيبك؟.

تكلمت هدى بهدوء:

ـ أنا أريده أن يراني كما أنا.. لا كما تريدون أنتم..

صرخت أمها ولأول مرة:

ـ دعيك من هذه الترهات، واذهبي لتغيري ملابسك، فخطيبك على وشك الحضور.

في هذه اللحظة دخل والدها المطبخ.. ذُهل لرؤيتها على هذه الصورة.. سألها بصوت قلق:

ـ هدى.. ما بك.. لماذا ترتدين ملابسك على هذه الصورة المزرية؟

نكست هدى رأسها ولم تتكلم..

تابع والدها كلامه:

ـ إذهبي.. إذهبي بسرعة لتغيري ملابسك.. هيا..

ـ أسرعت هدى إلى حجرتها لتلقي بنفسها على سريرها باكية.. لحقت بها أمها بعد قليل.. وساعدتها على ارتداء ملابسها الجديدة ومسح دموعها الكثيرة.

* * *

حملت هدى صينية الشاي، ودخلت إلى خطيبها وكل شيء فيها يرتجف.. يداها.. قدماها.. حتى رموش عينيها.. وكادت الصينية تقع من يديها أكثر من مرة.

ما أن وقعت عيناها عليه حتى فوجئت.. إنــه ليس كبيراً كمـا تصورت.. ربما هو في الأربعيـن مـن عمره أو أكثر قليـلاً.. ولكنـه يبدو كما لو كان في الخامسة والثلاثين..

وقف احتراماً لها.. هالها قصره الشـديد.. إن طولـه لا يتعـدى كتفيها بحال من الأحوال، جلست وهي مذهولة.

إنه حتى لم ينظر إليها.. اكتفى بنظرة عابرة، ثم انطلق يتحدث لوالدهـا، وكأنهـا ليسـت موجـودة.. نهضــت مســرعة وخرجـت مـن الحجرة.. التقتها أمها وهي في طريقها إلى حجرتها.. سألتها بصـوت خافت وكأنها تخاف أن يسمعها أحد:

ـ هاه.. ما رأيك فيه.. هل أعجبك؟.

لوت هدى شفتيها في احتقار وقالت:

ـ يكفي أنه يعجبكم أنتم.. أنـا لا أرى لـي رأي فـي شـيء.. وفوجئت بإخواتهـا الخمسـة يتغـامزون عليهـا ويتضــاحكون.. وفجـأة انطلقـت أصواتهم بالغنـاء "اتمخطـري يـا حلـوة يـا زينـة.. يـا وردة مـن جــوه جنينة".

أسكتتهم الأم بإشارة من اصبعها وقالت بصوت هامس:

ـ اصمتوا جميعاً.. الرجل موجود.. قد يسمعكم..

قال يوسف أكبرهم وهو يضحك بسخرية:

ـ متى الزواج إن شاء اللّـه.. أريد أن أرتاح من هذا المشـوار اليومـي المتعب.. إلى الجامعـة ثـم إلـى البيـت.. لقد أنقذنـا هـذا الرجـل.. إنـه يستحق مكافأة..

قال الصغير ياسر ابن الأعوام الخمسة:

ـ إنها دائماً تضربني عندما أدخل حجرتها.. متى تذهب لندخل حجرتها متى نشاء؟.

تكلمت هدى أخيراً:

ـ لن أذهب.. ولن أتزوج.. موتوا بغيظكم.

في المساء طلبها والدها على عجل.. أتت مسرعة.. وأشار لها بأن تجلس أمامه.. فجلست مضطربة والقلق يأخذ منها كل مأخذ.

تكلم والدها:

ـ هدى يا ابنتي.. إن خطيبك متعجل في الزواج، فهو سيسافر إلى باريس لإنجاز بعض الأعمال ويريد أن يتم الزواج ليأخذك معه.. وفرصة لتقضيان شهر العسل هناك.. ما رأيك نحدد موعد الزواج بعد شهر.

رغماً عنها شهقت بفزع.. فلم تتوقع أبداً أن يتم الزواج بهذه السرعة العجيبة..

ـ أبي.. مستحيل.. أنا لست مستعدة..

نظر أبوها في وجهها بدهشة وهو يتساءل:

ـ تستعدين.. لماذا؟ إنه طلب مني أن أخبرك بألا تجهزي نفسك بأي شيء.. فقط ثوب الزفاف وبعض الأشياء الضرورية.. وكل شيء سوف تشترينه من باريس.. شعرت بقلبها ينتفض بين ضلوعها.. فسكتت ولم تقل شيئاً.. اكتفت بأن هزت رأسها بعلامة الموافقة.. ربت والدها على كتفها بحنان.. فقامت إلى حجرتها تجرها قدميها جراً ولم تبك.. أحست بأن أحزانها أصبحت أكبر من أن تعبر عنها بالدموع.. بل أحست بأن أحزانها أكبر منها.. أكبر من عالمها الصغير ودنياها الحالمة.. إن أحزانها تغرقها حتى أذنيها.. ولم تنم ليلتها أضحت تفكر والغضب يشتعل في رأسها.. لماذا تقبل هذا الرجل زوجاً لها؟ لماذا لا ترفضه بعنف؟ لماذا تستسلم بكل هذه

السهولة لوالديها، وكأنها شاة تساق للذبح؟ لماذا لا تقف بوجوههم جميعاً وتصرخ رافضة كل شيء عن هذه الصفقة الغريبة؟ إنها ليست بضاعة لتعرض للتجارة.. إنها إنسانة لها مشاعر وأحاسيس وفكر.. واستبد بها الحماس، حتى أنها نهضت من سريرها في الثانية صباحاً، واتجهت إلى حجرة والديها.. والتصميم يملأ رأسها بأنها أبداً لن تتراجع وسترفض هذه الصفقة الخاسرة.

وما أن وصلت باب الحجرة حتى تناهى إلى سمعها أصوات..

إن أمها وأباها يتحدثان.. إنها تسمع اسمها يتردد بين الكلام.. لم تقصد استراق السمع أبداً.. ولكنها سمعت صوت أمها واضحاً وهي تقول لأبيها:

ـ ولكن هدى.. ما ذنبها في هذا كله؟.

علا صوت والدها وهو يقول:

ـ وأنا ما ذنبي.. أبو خالد خطيب هدى دائن لي بنصف مليون دولار.. وأنت تعرفين بأنني لا أستطيع السداد له الآن.. ثم إنه لا يعيبه شيء.. رجل.. مثقف.. و.. و.. وعادت هدى إلى حجرتها تبكي.. تبكي في صمت.. إنهم يبيعونها له.. لم تتصور أنها رخيصة عند والدها إلى هذا الحد.. إلى درجة أن يبيعها لرجل غني..

وقررت من بين دموعها أن تتزوج.. حتى ولو من الشيطان نفسه، ما دام أبوها يريد أن يبيعها بهذه الطريقة الرخيصة.

* * *

في ليلة زفافها إلى رجلها التاجر المشهور عبد اللّه عيسى.. كانت خائفة.. وحزينة.. ومريضة.. مريضة لدرجة أنها لا تستطيع أن تتحرك.. إن مرضها داخلي.. في نفسها.. وليس في جسدها.. اكتظت قاعة الفندق الضخم بالمدعوات.

وفي الثانية عشرة تماماً.. كانت هدى تحتل المنصة بكامل زينتها وجمالها لدرجة الإبهار.. والرقص والغناء لا يتوقفان.. وفي

لحظة ما اعتلت إحدى السيدات المنصة، وقامت ترقص بإبداع شديد لدرجة بهرت الحاضرين.. وتصاعدت الهمسات بين المدعوات وساد القاعة وجوم تام.. تطوعت إحدى السيدات بإبلاغها بأن التي ترقص هي زوجة عريسها عبد اللّه عيسى.. زوجته الأولى وأم أبنائه.. صعقت هدى لهول الصدمة.. وبرزت عيناها من محجريهما وهي تتأمل غريمتها، إنها جميلة.. بل جميلة جداً.. أجمل منها.. جمالها من النوع الوحشي الذي يدير الرؤوس ويخطف الأبصار.. وقوامها ملفوف برشاقة.. ثم إنها صغيرة لا تتجاوز الثلاثين بأي حال من الأحوال..

وجمت هدى وسؤال حاد يخترق رأسها ويعصر قلبها بقسوة.. لماذا.. لماذا يتزوج هذا الرجل للمرة الثانية؟ ماذا ينقصه ليحاول أن يكمله؟ إن زوجته الأولى تتحداها، وهي لا يمكنها أن تقبل التحدي.. لا لأنها لا ترقى إلى مستوى جمالها بل لأنها مضطرة إلى هذا الزواج.

إنها لم تخطف هذا الرجل من بيته وأولاده، بل هو الذي سعى إليها.. وأهلها أجبروها على الزواج منه وهي لا تريده.. بل هي تكرهه..

وانتهى الرقص وهي تتمنى لو أن الأرض انشقت وابتلعتها.

وجاءتها زوجته.. تقدمت منها وهمست بصوت كالفحيح:

ـ مبروك..

تكلمت هدى بصوت خافت..

ـ لم أكن أعرف.. صدقيني..

ولكنها أسكتتها بنظرة ساخطة، ومضت لا تلوي على شيء.. فاشتعل قلب هدى بالسخط المرير على أبيها وأمها وزوجها.. وحتى نفسها.. لماذا لم يخبروها أنه متزوج.. لماذا.. لماذا أخفوا عنها هذه

الحقيقة البشعة، التي لو عرفتها لما كانت أقدمت على الزواج منه أبداً ولو بقطع رقبتها.. ولو أمضى أبوها حياته كلها في السجن.

كادت دموع الغيظ والقهر تفر من عينيها لو أنها منعتها بقوة.. استجمعت كل إرادتها وكل شجاعتها لتبدو طبيعية أمام الناس..

وفي جناحها الفخم في الفندق التقت عريسها وحدهما لأول مرة.. إنها ليست خائفة.. ولا حزينة، إنها غاضبة.. غاضبة لدرجة الحنق.. اقترب منها ببطء.. صرخت في وجهه بحدة:

ـ لماذا لم تخبرني بأنك متزوج ولديك أطفال؟.

بهت.. ثم تنحنح قبل أن يقول بهدوء:

ـ أنت لم تسأليني.. ثم إن أباك يعرف كل ظروفي، وأنا لم أغصبك على شيء..

أسكتها بمنطقه.. فانحدرت دموعها غزيرة على خديها، وبكت وكل شيء فيها يهتز.. انطلقت دموعها الحبيسة طوال النهار، وجرفت كل شيء في طريقها.. الغضب.. والغيظ.. والعذاب.

* * *

جلست إلى جوار زوجها في الطائرة التي أقلتهما إلى باريس.. كان يتحدث إليها وهي صامتة تفكر.. تفكر بكل شيء تركته وراءها.. أمها وأباها.. وأخوتها بسخريتهم المريرة لها ليلة زفافها.. وفاطمة صديقتها.. وعماد.. عماد حبها الوحيد.. ترى هل اكتشف بأنها هي كاتبة الرسالة.. أم أنه ما زال يجهل كل شيء؟ ترى هل ندم على زواجها من رجل غيره.. أم أنه لم يعرف بهذا الأمر بعد؟. أفاقت من بحر أفكارها المتلاطم على صوت زوجها:

ـ أنظري من نافذتك.. ألا ترين باريس، كم هي جميلة من فوق.. انظري إلى برج ايفل.... ألا ترينه.. وكأنها لم تر شيئاً مما يقوله

أبداً.. كانت الدموع تغرق وجهها الجميل، فلا ترى سوى الضباب.. ضباب كثيف يحيط بها من كل الجهات.

في فندق ماريوت في قلب باريس جلست تطل من نافذة حجرتها على مسبح الفندق.. إنها مشدوهة بكل ما تراه.. الناس.. المحلات التجارية.. الطبيعة.. الجو.. إنها لم تر مثل هذا في حياتها أبداً.. ولكنها لا تستطيع أن تستمتع بما ترى.. وسألت نفسها بصمت.. ترى لو كان عماد هو رفيقها في هذه الرحلة.. هل ستحس لها طعماً آخر؟

انتبهت على صوته.. إنه يحدثها؟

- هدى.. إنني أراك متحجبة وهذه مسألة متروكة لك، ولكن إذا أردت أن تخلعي حجابك فأنا أرحب بذلك..

نظرت إليه بحنق وهي تقول بحسم:

- لن أخلع حجابي أبداً.. وأرجوك لا أريد أي كلام في هذا الموضوع مرة أخرى..

أدهشته لهجتها المعادية، فقال لها برقة:

- إنسي موضوع الحجاب.. هل أنت مستعدة لنخرج بعد قليل؟.

أومأت بالإيجاب.. وارتدت بذلتها البيضاء الناصعة مع حجابها الأبيض مما أضفى عليها هالة نورانية، وكأنها مخلوقة شفافة من زجاج..

وخرجت معه يسيران في الشوارع على غير هدى.. وهي مذهولة.. مبهورة بكل ما تراه..

وقفا في نهاية شارع الشانزليزيه الشهير، يتفرجان على برج إيفل الشاهق الإرتفاع.. بهرها المنظر، فسألته برقة مصطنعة:

- هل يمكن.. أعني.. هل يمكننا الصعود إلى فوق؟.

قهقه بصوت عال وهو يقول:

ـ بالطبع.. هيا..

وصعدا مع أفواج السائحين الذين تغص بهم ساحة البرج.. إنهم كثيرون.. وكأن العالم كله يريد أن يتفرج على برج إيفل الشهير.. صعدت معه في المصعد المؤدي إلى قمة البرج، التصقت به من شدة الزحام.. وما أن أطلت من فوق حتى بهتت لروعة المناظر.. إنها ترى نهر السين الممتد تحتها بمياهه الزرقاء النظيفة، والمراكب الشراعية الجميلة تمخر عباب النهر وكأنها مزهوة بهذا المنظر الخلاب..

أمسك بيدها ونزلا إلى حيث المطعم في الطابق الأول.. اصطدما وهما يخرجان من المصعد بشاب وفتاة ذات جمال مذهل.. هتفت الفتاة:

ـ بردون.. فوزت بيل مودموازيل..

التفتت لزوجها متساءلة.. حيا زوجها الشابين بابتسامة وقال لها:

ـ إنها تقول إنك جميلة..

نكست رأسها في خجل.. وهي تقول بدون تفكير..

ـ وهي أيضاً جميلة..

همس في أذنها:

ـ ولكنك أجمل منها بكثير..

ابتعدت عنه وهي تتظاهر بأنها تتطلع إلى وجوه الناس المختلفة..

في المساء ذهبا إلى مطعم العجمي العربي في قلب باريس.. ذهلت لفخامته وروعته.. وأخذت تتطلع إلى روّاده بمزيج من العجب والانبهار.. إنها ترى ممثلة معروفة تجلس إلى شاب عربي يبدو عليه

الثراء.. وكثير من الرواد العرب والأجانب.. أحست بشاعرية المكان، فابتسمت لنفسها بهدوء..

جلسا في ركن منزوٍ من المطعم الشهير.. طلب الزوج من النادل عشاءً فخماً.. تجاهلت نظرات زوجها المحدقة في وجهها، وتشاغلت بالتطلع إلى أي شيء.. التفت إلى الناحية الأخرى قبل أن ينطق بكلمة.. سمعا شاباً يتغزل بجمالها بلغة عربية سليمة.. غضب زوجها أشد الغضب.. فشدها من يدها إلى الخارج.. وتناولا عشاءهما في الفندق.

* * *

في الأيام التالية لم يخرج معها أبداً.. أصبحت سجينة حجرتها.. وهو يروح ويجيء.. يخرج في الصباح الباكر ويعود ليتناول معها طعام الغذاء.. ثم يخرج في السادسة مساء ولا يعود إلا في الساعة الثانية بعد منتصف الليل.

أحست بكيانها يغلي.. وتساءلت بغضب.. لماذا يأتي بها إلى باريس ما دامت حبيسة حجرتها الكئيبة؟. تمضي وقتها بالتطلع إلى وجوه الناس عبر النافذة وكأنها حيوان حبيس في قفص..

قررت أن تواجهه، فإما أن يخرجا سوياً أو يعود بها إلى أرض الوطن.. فيكفيها عذاباً أنها ابتعدت عن أهلها وأحبابها.

انتظرته طويلاً حتى عاد في الثانية فجراً.. لقد تأخر هذه الليلة.. قالت بهدوء:

ـ أريد أن أعود إلى الوطن لو سمحت..

حدجها بنظرة ساخرة وهو يتساءل:

ـ ولماذا؟

قالت ببرود شديد:

- أبداً.. لا لشيء.. ولكنني لم آت إلى هنا لكي أمضي أياماً حبيسة أربعة جدران وإلا لما كنت أتيت.

اشتعلت عيناه بالغضب وهو يقول:

- وهل تريدينني أن أترك عملي وتجارتي وأتفرغ لدلعك؟. أنا أتيت هنا لغرض أهم من الدوران في الشوارع..

صرخت في وجهه:

- ولماذا تحضرني معك إذن؟.

تلعثم وهو يجيب

- أنا.. أقصد.. فرصة.. عمل وشهر عسل.. ولكن لا بأس.. أنا أعرف أن عملي أخذني منك كثيراً لذلك أعدك بأنني سوف أعوضك غداً عن كل شيء.. سنلف باريس من الصباح حتى المساء..

أجابت بعناد:

- كلا.. أنا أريد أن أعود..

قال:

- ولكنك ستعودين معي بعد أيام قليلة.. إننا لم نمض هنا سوى عشرة أيام..

صرخت مرة أخرى:

- أرجوك.. أريد أن أعود.. وإذا رغبت أنت في البقاء، فأرجو منك أن تعيدني في الطائرة بمفردي..

لمس كتفها بود وهو يقول:

- حسناً.. حسناً.. أمهليني يومين.. يومين فقط وسنعود بعدها للوطن..

* * *

استقبلتها والدتها بالدموع.. وبكت هدى بدورها وهي تحتضن أمها وأباها.. وسحبت نفسها من بين أحضانهما سريعاً لتذهب إلى حجرتها.. لقد اشتاقت إليها كثيراً..

تمددت على سريرها الصغير وأغمضت عينيها باستمتاع ممزوج بقلق..

دخلت أمها الحجرة.. تنبهت لها هدى، فتحت عينيها القلقتين.. واجهتها عينا أمها وفيهما ألف سؤال وسؤال.. بادرتها الأم:

- ألن تحكي لي عن رحلتك يا هدى؟

تنهدت هدى بيأس:

- ليس الآن يا أمي.. سأحكي لك فيما بعد..

قالت أمها بهدوء:

- ولكن يا حبيبتي أريد أن أطمئن عليك.. هل أنت سعيدة مع زوجك "أبو خالد"؟.

أطرقت هدى برأسها وهمست:

- لست سعيدة.. ولست حزينة.. بين بين..

أعيش حياة عادية.. أمشي وأرى وأنام.. أليس هذا ما تريدونه يا أمي.. أليس هذا هو مطلبكم؟.

مسحت والدتها دمعة فرت من عينيها وهي تقول:

- لا يا حبيبتي.. أنا وأبوك نريد لك كل السعادة.. وزوجك من أفضل الأزواج.. ولكن صبراً يا بنيتي، إنك في بداية زواجك.. وكل فتاة تقول هذا في بداية زواجها.. ولكن مع الأيام والعشرة والتجارب يتولد الحب الحقيقي.. واسأليني أنا..

ابتسمت هدى بسخرية.. ثم أغمضت عينيها وغمغمت بصوت هامس:

- أمي.. أريد أن أنام..

خرجت أمها من الحجرة بعد أن أطفأت النور وأغلقت الباب.. بادرها زوجها بلهفة:

- هاه.. بشري.. ماذا قالت لك.. هل هي سعيدة معه؟

وضعت الأم أصبعها على فمها وهي تقول بهمس:

- لا ترفع صوتك.. إنها نائمة الآن.. ولم تقل لي شيئاً يستحق الذكر..

تكلم الأب:

- ألم تسأليها عن شيء البتة؟.

ردت الأم بعصبية:

- بلى سألتها، ولكنها رفضت أن تجيبني الآن.. تقول إنها ستحكي لي فيما بعد..

سألها الأب مرة أخرى:

- ولكن ألم تشعري بها.. ألم تفهمي من كلماتها هل هي سعيدة مع "أبو خالد" أم لا؟.

تنهدت الأم وهي تجيب:

- إني خائفة يا أبا يوسف إنها تبدو غير سعيدة.

تكلم الأب:

- لا تخافي أبداً. فإن زوجها رجل طيب وكريم وسوف تحبه مع الأيام.. ألا تذكرين ليلة زواجنا؟.

ضحكت الأم بدلال وهي تقول:

- وهل يعقل أن أنسى ليلة كتلك.. لقد كنت أبكي بشدة.. أتذكر يوم طلبت منك أن تطلقني..

ابتسم الأب وهو يجيب:

- يا لها من أيام لا تنسى.. أيام الشباب.. دعيها يا أم يوسف.. دعي هدى تعيش حياتها كما عشناها..

على فكرة.. متى قال زوجها بأنه سيأتي ليأخذها؟.

ردت الأم بعد تنهيدة طويلة:

- لا أدري.. ربما الليلة..

دخلت هدى في بيتها الكبير ذي الأثاث الفاخر الأسطوري.. والخدم والطباخون.. والسفرجية.. والوصيفات وكل شيء مثير للدهشة والإهتمام..

ولكنها لا تشعر بأي شيء من هذا.. حالة خاصة تلك التي تعيشها.. حالة من الغثيان والإشمئزاز والقرف من كل شيء.. حتى حجرتها الفخمة الرائعة الجمال كانت تراها باردة.. موحشة وكئيبة.. وكانت تفضل عليها ألف مرة حجرتها المتواضعة البسيطة في بيت أبيها.. كانت تشعر بنفورها يزداد من زوجها رغم محاولاته المستميتة.. لكسب حبها وودها.. إنها لا تدري لماذا تشعر نحوه بهذا الشعور المقيت.. تمنت لو أحبته يوماً.. ولكن قلوبنا ليست بأيدينا نحركها كيفما نشاء..

وقفت وسط حجرتها الكئيبة والغثيان يكاد يمزق كبدها.. انتشلها رنين الهاتف من أوجاعها.. هتفت صارخة..

فاطمة.. أين أنت.. لماذا لم أرك كل هذه المدة؟ أريد أن أراك فوراً..

وبعد ساعة كانت وصديقتها فاطمة يجلسان في حجرتها الفخمة الباردة.. بادرتها فاطمة:

ـ هاه.. أحكي لي كل شيء.. منذ البداية..

ولكن أخبريني أولاً ما بك.. لماذا أنت متعبة هكذا؟. كنت أعتقد بأن الزواج يجمل الفتاة..

وجمت هدى ولم ترد..

سألتها فاطمة بإلحاح:

ـ هدى.. أقلقتني.. ماذا بك؟

ردت هدى بوجوم..

ـ فاطمة.. أنا حامل..

ضحكت فاطمة بعصبية وقالت وهي تفتعل المرح..

ـ وهل هذا أمر محزن.. وقلدتها (أنا حامل).

تقولينها وكأنك تقولين أنا سأموت.. وما به الحمل.. إنه نتيجة طبيعية للزواج.. إنه هو الذي يوثق الروابط بين الزوجين يا بلهاء..

لم تبتسم هدى وإنما ردت بصوت حزين..

ـ أنت لا تعرفين شيئاً يا فاطمة.. أي شيء.. لا تعرفين بأنني أعيش حياة الموت أفضل منها.. إنني لا أحب زوجي إذا كنت لا تعرفين.. لا أحبه..

نظرت إليها فاطمة بقلق وهي تقول:

ـ ولماذا لم تحاولي أن تحبيه؟

ردت هدى:

ـ لا أدري يا فاطمة.. لا أدري..

همست فاطمة:

ـ أيكون عماد هو السبب؟.

نظرت هدى لفاطمة بكلتا عينيها ونفت قائلة:

ـ كلا.. لا أعتقد أنه السبب.. إنه لا دخل له في هذا الأمر.. إنني لا أحب زوجي.. ربما لأنه خدعني في بداية زواجنا ولم يخبرني بأنه متزوج.. وربما لأسباب أخرى أنا لا أعلمها..

تكلمت فاطمة بهدوء:

ـ لننسَ الماضي بكل آلامه ونفتح صفحة جديدة.. لا تنسي إنك حامل الآن.. طفلك المقبل ما ذنبه ليعيش حياة غير مستقرة.. تحملي من أجل ابنك وحاولي أن تحبي زوجك من أجله..

رفعت هدى رأسها والدموع تتلألأ في عينيها الجميلتين وقالت بصوت مبحوح:

ـ سأحاول يا فاطمة.. سأحاول..

سمعت صوت زوجها، فقفزت كالملسوعة.. ومسحت دموعها وهي تقول لفاطمة:

- لقد أتى.. إنه لا يحب أن يراني أبكي أبداً..

ابتسمت فاطمة بحزن وهي تقول:

- أرأيت، إنه يحبك.. عموماً سأذهب الآن وأرجو أن أراك في وقت لاحق أفضل من الآن..

ودعتها هدى وهي تعدها بأن تكون عند حسن ظنها.. وعادت إلى زوجها المستلقي على أريكة في الصالة يرقب برامج التليفزيون.. وسألها دون أن ينظر إليها:

- من كان عندك يا هدى؟.

ردت بإيجاز:

- إنها صديقة.. صديقة قديمة من أيام الدراسة وما زالت تدرس معي في الكلية..

غمغم زوجها:

- آه.. كلية آه.. لا بأس..

صرخت فيه دون وعي:

- ماذا تقصد؟

رد بهدوء:

- ما بك عصبية هكذا؟ أنا لا أقصد شيئاً.. ودراستك بالكلية نرجئها إلى وقتها..

صرخت مرة أخرى:

- أي وقت تقصد.. إنني لن أتنازل أبداً عن دراستي بالكلية.. أبداً.. أتفهم.. ولو كان الثمن هو الطلاق.. ومضت سريعاً تجر رجليها إلى حجرتها الباردة.. وإحساس بالغثيان يملأ جوفها.. ويتصاعد إلى

رأسها.. ومضت في عقلها فكرة خطيرة.. لماذا لا تطلب الطلاق فعلاً من زوجها؟ أرعبتها الفكرة.. ولكن لمَ لا..؟.

تحسست بطنها بيأس وهي تتذكر حملها.. وماذا تفعل بطفلها؟.

اخترقت عقلها فكرة مريعة أخافتها.. فكرة أشد إرهاباً من الأولى.. لمَ لا تجهض نفسها وتتخلص منه مرة واحدة؟.

سيطرت الفكرة على كيانها كله.. فأغلقت باب حجرتها بالمفتاح..

تناولت دليل الهاتف بيدها.. وبحثت في أسماء الأطباء.. واختارت إسماً.. أي أسم.. أول اسم في القائمة..

أدارت قرص الهاتف.. وجاءها صوت ناعم..

مستشفى الدكتور صلاح حامد.. من المتحدث؟.

ارتجفت السماعة في يدها، وفكرت بأن تلقيها مكانها، ولكن الإغراء أكبر.. والخطأ يجر الخطأ..

تكلمت بصوت هامس مرتجف:

- أريد أن أحادث الدكتور صلاح حامد من فضلك..

وجاءها الصوت الناعم:

- حسناً.. دقيقة واحدة من فضلك..

انتظرت برهة خالتها دهراً.. وقلبها ينبض بقوة.. ويداها ترتجفان وعيناها تدمعان لهول ما هي مقدمة عليه..

سمعت صوتاً أجش على الطرف الآخر..

- الدكتور صلاح حامد معك.. من المتكلم؟.

ردت بصوت متلعثم:

- أريد أن أسألك يا دكتور.. ممكن.. أقصد.. أقصد.. هل ممكن..

تكلم الدكتور بصبر وتفهم قائلاً:

ـ أفهم ترددك.. ولكن ماذا تريدين بالضبط لأن وقتي ليس ملكي.. وطابور المرضى كثير..

همست:

ـ آسفة يا دكتور.. ولكنني أردت أن أسألك.. عن.. عن عمليات الإجهاض..

تكلم الدكتور بصوته الأجش:

ـ نعم.. ما بها..

تكلمت بعجل:

ـ أقصد.. هل ممكن أن تتم هنا.. إنني يا دكتور مطلقة وأريد أن أتخلص من جنين أحمله..

علت نبرة الدكتور وهو يرد:

ـ لا مستحيل يا آنسة.. هذا حرام ولا نفعله مطلقاً.. آسف.. آسف كثيراً..

وأغلق الخط في وجهها.. وهي واجمة ودموعها معلقة بأهدابها.. وسؤال حزين يرن في أذنيها "ماذا بعد هذا؟" وأخيراً ألقت بنفسها على السرير الحزين.. وأجهشت ببكاء مرير...

* * *

في صباح أحد أيامها الحزينة، أخبرها زوجها بأن زوجته وأولاده يرغبون في زيارتها إذا لم يكن عندها مانع.. سكتت ولم ترد وعقلها يتساءل بإلحاح.. ماذا تريد منها هذه المرأة؟ هل تريد أن تحطمها؟ أم ماذا تريد أن تذلها؟ أم تريد ماذا بالضبط.. وهو كيف يسمح لها بهذا؟ كيف يتقبل أمر زيارتها بمنتهى البساطة والمرح وكأن أمه هي التي ستزورها..

وهمست لنفسها بحنق:

"حقاً إنها عائلة غريبة".

وفي الليلة نفسها أحضر زوجته وأولاده الثلاثة.. خالد ولد كالقمر.. وطفلتان من أجمل ما رأت عيناها..

ابتسمت زوجته في وجهها بسخرية وهي تسألها:

ـ أخبرني عبد اللّه إنك حامل.. مبروك..

اشتعل الغضب في قلبها وهي ترد عليها:

ـ شكراً لك.. شرفتينا..

وألقت هدى نظرة عابرة على زوجها.. وهالها منظره إنه يرقبها بابتسامة كبيرة، وكأنه يجد هذا المشهد مثيراً ومسلياً..

أحست بالإهانة.. وبأن هذا الموقف السخيف يهين كرامتها ويحط من قدرها.. وكأنه ملك تتسابق الجواري لخدمته وإسعاده..

لن تدعه يشعر بهذه السعادة أبداً..

وفجأة:

نهضت من مقعدها دون أن تستأذن أحداً.. وأسرعت إلى حجرتها لتغلقها على نفسها بالمفتاح.. تسارعت دقات قلبها وهي تشعر بخطورة الأمر الذي أقدمت عليه.. بالتأكيد ستفرح زوجته الأولى وتعتقد بأنها انتصرت على غريمتها.. وهو.. ماذا سيظن بها؟.

ربما يعتقد بأنها تغار من زوجته.. أو ربما..

وتوقفت عن التفكير فقد سمعت طرقات عنيفة على باب حجرتها.. وسمعت صوته:

ـ هدى.. إفتحي الباب..

سكتت ولم تجد جواباً.. فاستمر الطرق أعنف واشد مما كان.. حتى صرخ..

ـ هدى.. ما بك.. هل جننت؟ افتحي وإلا كسرت الباب..

قامت والأسى يثقل خطواتها وفتحت الباب..

دخل مارقاً كالسهم وهو يصرخ..

ـ ما بك.. هل أساء أحد إليك.. لماذا انسللت هاربة كاللص؟.

أسكتته بكلماتها:

ـ أرجوك .. لا داعي لهذا الكلام.. إنني متعبة ولا أستطيع الجلوس مع أحد..

نظر إليها نظرة ذات مغزى وهو يقول:

ـ لا تستطيعين الجلوس مع أحد.. أمتأكدة أنت من ذلك؟ وقبل أيام رأيتك بعيني تجلسين مع إحدى صديقاتك..

تنهدت بضيق وهي ترد:

ـ أرجوك.. كف عن هذه المهاترات.. أنا متعبة.. وزوجتك لن أجلس معها شئت هذا أم أبيت.. تريد الحقيقة.. سأقول لك.. لن أجلس معها وكأننا جاريتان تحت خدمة سيادتك.. أفهمت الآن إنني لا أطيق هذا الأمر.. لا أطيقه..

ابتسم بسخرية وهو يغادر الغرفة.. ثم قال:

ـ لم أكن أدري أنك تغارين علي لهذه الدرجة.. وإلا لما كنت أحضرت زوجتي وأطفالي.. عموماً لا تخافي سأعيدهم الآن إلى بيتهم..

وما أن أغلق الباب حتى بصقت وراءه بشدة.. ثم وضعت رأسها بين كفيها وهي تنتحب وتكلم نفسها:

ـ رباه.. ما هذه الحياة التي وضعتني فيها؟. زوج بارد ممل وسخيف.. أكرهه.. وأكثر من هذا لديه زوجة باردة عديمة الإحساس.. وأطفالها أيضاً.. إنني لا أحتمل.. لا أحتمل كل هذا..

وخطرت على بالها فكرة مفاجئة.. نفذتها على الفور.. صعدت إلى سريرها واقفة ثم ألقت نفسها منه بكل ثقلها على بطنها.. للتخلص ممن يتحرك في أحشائها.. ويثير فيها الإحساس بضرورة الصبر والتضحية..

ولكن:
- لم يحدث لها شيء.. أي شيء.. فقط أحست بألم شديد في إحدى ساقيها.. ألم لا يحتمل..
أسرعت إلى الهاتف لتحادث والدتها:
سمعت صوت والدتها الحنون على الطرف الآخر:
- ما بك يا هدى.. لماذا أنت منزعجة؟
- لا .. لا شيء يا أمي.. فقط أشعر بألم في ساقي..
- هل سقط على ساقك شيء ثقيل؟.
- كلا يا أمي.. البتة.. ولكن.. ولكنني سقطت عليها..
- سقطت.. يا للجنون.. أنت حامل يا هدى.. المفروض أن تحترسي من هذه السقطات، فقد تؤدي إلى إجهاض الجنين.. أين زوجك؟.
- خرج.. أمي لا تقلقي.. إنه ألم بسيط يمكنني احتماله..
- حسناً.. انتبهي لنفسك يا حبيبتي.. الوداع.. الوداع..
قالتها بألم وحزن.. وشيء ما بداخلها يتحطم.. لا تدري كنهه.. ربما هو قلبها!!

* * *

وتمر أشهر الحمل بطيئة.. ثقيلة.. مملة.. وحياتها تمر من سيء إلى أسوأ.. زوجها يغيظها ببرودة.. وصمته.. وغيابه الكثير عن البيت..
وهي حائرة بشأن مستقبلها وكيف يكون؟
ومصير طفلها المنتظر؟ وهل سيعيش بسعادة بين أم حزينة وأب مشغول؟
لم تسأل نفسها أبداً كيف شكله؟ ما نوعه.. بنت أم ولد؟ هل يشبهها أم يشبه والده؟ أبداً لم يحدث أبداً أن اتجه تفكيرها إلى هذه الأشياء.. إن تفكيرها أكبر من هذا.. وتساؤلاتها مصيرية ومحتومة..

في منتصف إحدى ليالي شهر يوليو الحار.. استيقظت هدى على ألم شديد يعصف بها.. تكرر هذا الألم كل بضع دقائق.. صرخت من شدة الهلع.. فقد تذكرت كلام الطبيبة حيث أفهمتها بأن الألم المستمر هو من علامات الولادة..

لم يكن زوجها إلى جوارها "بالتأكيد هو عند زوجته الأولى".

قالتها بدون تفكير وهي تسرع نحو الهاتف.. ونبضات قلبها تتسارع مع دقات الهاتف.. سمعت صوته يغالب النوم..

ـ ألو..

صرخت فيه بيأس..

ـ أسرع.. إنني ألد..

وصلت إلى المستشفى في آخر لحظة.. فبعد ساعة فقط من وصولها خرج الطبيب وهو يقول لزوجها:

ـ مبروك.. ولد.. ولكن..

ثم أردف الطبيب بوجه متجهم:

ـ ولكن.. أقول ربما هو مصاب بإعاقة بسيطة.

ذهل الأب.. فحاول أن يستفسر أكثر:

ـ دكتور.. تقصد أنه ولد معاق..

اضطرب الطبيب وهو يجيب:

ـ لا .. لا أعني هذا بالضبط.. عموماً الفحوصات ستؤكد كل شيء.. عن إذنك..

* * *

دخل والد هدى مسرعاً إلى بيته.. قابلته زوجته بنظرة متساءلة:

ـ تكلم بنبرة حزينة.

ـ هيا.. أسرعي يا أم يوسف.. هدى أنجبت ولداً..

انفرجت أسارير الأم وهي تسأل:

- وكيف حالها الآن.. هاه.. وكيف حال الطفل.. ومتى ولدت؟

أجاب الآب وما زالت النبرة الحزينة تغلف كلماته:

- رويدك.. رويدك يا أم يوسف.. هيا الآن لنراها..

وفي الطريق إلى المستشفى سألته الأم:

- أبو يوسف.. ما بك.. إنك تخيفني.. أليست هدى بخير؟.

- بلى.. بلى.. إنها بخير.. ولكن الطفل.. إنه.. إنه معاق..

شهقت الأم وهي تضرب صدرها بيدها.. وبعد فترة صمت.. صمت قلق.. تكلمت الأم وهي تلهث:

- وهل عرفت هدى بهذا الأمر..

أجاب الأب:

- لا أدري.. لقد هاتفني زوجها اليوم وأنا في المكتب وأبلغني بأن الطفل يعاني من شلل في المخ وهو الآن في الحضانة الزجاجية..

ألقت الأم رأسها إلى ظهر المقعد وقلبها يشتعل حسرة على وحيدتها.. فكيف.. كيف تتقبل هدى هذا القدر القاسي الذي لا يرحم..

ذرفت عيناها الدموع حتى أمرها زوجها بأن تكف عن البكاء، لأنهم وصلوا إلى المستشفى..

في الحجرة رقم ٤٤١ من مستشفى الولادة والأطفال، رقدت هدى على سريرها واجمة حزينة فقد عرفت كل شيء وآمنت بأن القدر يعاندها وأنها أبداً لن تذوق طعم السعادة.. ففي كل خطوة من خطوات حياتها لا بد أن تصادفها العراقيل والأحزان.. من حبها اليائس إلى زواجها التعيس وحتى ولادتها لطفل معاق..

أحست باليأس يلف حياتها بغلالة سوداء.. أغمضت عينيها كي لا ترى واقعها المرعب.. ولكن لا، إنه يعيش داخلها ويجثم على صدرها ككابوس رهيب..

صرخت فزعة.. في الوقت نفسه الذي دخلت فيه أمها حجرتها.. فتلقفتها بين ذراعيها وانخرط الإثنتان في بكاء موجع.. حزين..

* * *

نظرت هدى إلى طفلها الصغير المسكين، ثم أشاحت بوجهها سريعاً، وقلبها ينبض بالألم والعذاب.. ما ذنبه هذا المسكين ليولد هكذا؟. مشوهاً.. معاقاً.. نظرت إليه مرة أخرى بحذر.. إن عينيه ليست على ما يرام.. غير طبيعيتين إطلاقاً.. وحجمه صغير.. صغير جداً.. وكأنه لعبة صغيرة..

تنهدت بقوة وهي تضمه إلى صدرها وصوت بكائه الخافت لا ينقطع..

أعطته لأمها.. وكأنها تلقي إليها بكل مأساتها..

تناولته الأم وفي عينيها نظرة إشفاق لم تستطع إخفاءها.. ثم تناولت زجاجة الحليب الصغيرة وحاولت إرضاعه..

سألت هدى أمها:

ـ ألم يسأل عنه أبوه؟. لقد مضى علينا أسبوعان منذ خروجنا من المستشفى وهو لا يسأل..

تشاغلت الأم بإرضاع الصغير وهي تقول:

ـ ربما هو مشغول.. أنت تعرفين يا هدى أكثر مني بأنه رجل أعمال ودائماً مشغول..

تنهدت هدى بيأس ثم همست:

ـ مشغول لدرجة أنه لا يسأل عن ابنه.. مستحيل.. ليس هناك أب قاسي القلب مثله.. إنه وقبل أن تكمل هدى عبارتها.. دخل والد هدى عليهما مسرعاً وصرخ فيهما:

- هيا.. أسرعا.. خذا كل ما تحتاجان إليه.. وهيا نغادر البلد فوراً.. الآن.. بسرعة.. نظرت إليه أم يوسف بهلع وهي تسأل..

- ماذا حدث.. ولماذا نغادر البلد بسرعة؟

صرخ فيها مرة أخرى:

- أسرعي.. لا وقت للأسئلة.. إنها مصيبة.. العراق يغزو الكويت.. ألم تسمعا صوت الدبابات والطائرات؟.

صرخت هدى وأغمي عليها.. فأسرع الأب يحملها إلى السيارة.. وأخذت الأم تنقل ما استطاعت من احتياجات أبنائها وهي تبكي بقوة.. والأب يحثها على السرعة.. ثم تذكرت فجأة.. إن أولادها نيام.. فأسرعت تسابق الريح إلى حجراتهم لتوقظهم..

راعهم التحول الخطير في بلدهم الحبيب..أفاقت هدى على منظر الدبابات وهي تملأ شوارع الكويت.. والجنود بملابسهم الحربية.. إنه شيء فظيع.. فظيع.. لا يصدقه عقل.. أغمضت عينيها وفتحتها مرة أخرى لتتأكد مما تراه وبأنه حقيقة وليس كابوساً بغيضاً..

النهب والسلب.. والحرائق في كل مكان..

والكويت.. الكويت الحبيبة.. إنها تغتصب.. بكت هدى بمرارة والسيارة تنهب الطريق في الطرق البرية المؤدية إلى السعودية..

تذكرت زوجها.. ترى أين هو الآن.. طردت ذكراه من مخيلتها ليحل محله عماد.. ترى هل غادر الكويت هو الآخر؟ أم أنه ما زال يناضل في الداخل.. تلاشت كل أفكارها على صوت الجندي العراقي وهو يسألهم بقسوة:

- إلى أين؟

أحست بأنها على وشك الإغماء.. تداخلت الصور في مخيلتها فلم تميز شيئاً.. تناهى إلى سمعها صوت والدها المرتجف وهو يقول:

ـ نحن ذاهبون إلى السعودية.. ومعنا امرأة مريضة.. و.. ثم سمعت صرخات وليدها.. وأغمي عليها بعد ذلك.. ولم تفق إلا داخل الحدود السعودية..

* * *

في العاصمة السعودية "الرياض" وفي بيت عمها الأكبر حيث البيت الواسع الكبير والحديقة المترامية الأطراف.. حلت هي وأهلها ضيوفاً على أهل البيت..

خصصت لهدى حجرة في الدور الأرضي.. فيها سرير واحد كبير.. ودولاب.. ومنضدة صغيرة للزينة وسرير صغير للطفل..

ومرت الأيام عليها بطيئة مملة.. وهي تكره كل شيء حولها حتى نفسها.. لم تصدق أن يحدث هذا كله في لحظة واحدة كلمح البصر.. لم تصدق أنها هي نفسها هدى الفتاة المرحة الجميلة.. لم تصدق أنها لم تتغير كتغير الظروف من حولها.. وأي ظروف.. ظروف دامية رهيبة وكأن أقدارها تسخر منها..

حاولت أمها بأن تدمجها في الجو الجديد.. وأن تعيش حياتها بطريقة طبيعية.. وكأن ما حدث لم يحدث.. ولكنها لم تستطع.. حاولت .. حاولت كثيراً..

في تلك الليلة اجتمعت بنات عمها وبنات عمتها.. وسائر بنات الأسرة الكبيرة في حجرتها ليسلينها في وحدتها.. ولكن.. الجرح ما زال يدمي القلوب والأسى يغمر الصدور بالحزن.. فتحولت أحاديثهن كلها إلى غزو الكويت وما يحدث هناك من مقاومة ونضال للجنود المعتدين..

واستبد بهن الحماس فصرخت إحداهن:

ـ تباً للعراقيين.. إنهم أنذال..

فقاطعتها رفيقتها:

ـ إنهم جميعاً يستحقون القتل.. لا فرق بين كبيرهم وصغيرهم..

فصرخت أخرى وبصرها متجه نحو السماء:

- يا رب اسخط عليهم.. يا رب اجعلهم كلهم معاقين حتى لا يؤذون شعبنا المسكين..

"معاقين" رنت هذه الكلمة في أذني هدى لتخترق قلبها وتدميه "معاقين" أي آلة معطلة في المجتمع.. لا لزوم لها.. بل إنها عالة عليه..

تجمعت الدموع في عيني هدى، فلاحظت صويحباتها ذلك.. فأمرتهن الكبرى بأن ينهضن:

- هيا.. هيا يا بنات فلنخرج.. لندع هدى تستريح فهي متعبة..

وخرجن.. وتركنها لوحدتها وآلامها وعذابها الشديد..

نظرت إليه.. إلى صغيرها.. ثم سقطت الدموع من عينيها بغزارة وهي تتساءل:

- هل نسي زوجي بأن له زوجة وطفلاً معاقاً؟ أم أنه لا يريد هذا الطفل؟ أم ماذا يا ترى؟

دخلت عليها والدتها.. هالتها الدموع المتجمعة في عينيها.. اقتربت منها لتضمها إلى صدرها بحنان وتهمس:

- حبيبتي لا تيأسي من رحمة اللّه.. فاللّه رحيم بعباده.. ألا ترين حالنا.. كيف كنا وكيف أصبحنا.. هل يعقل.. هل يعقل أن نصبح مشردين بين يوم وليلة.. ومهددين أيضاً؟.. تهدج صوت الأم بالبكاء.. فنظرت إليها هدى بتساؤل ودموعها ما زالت تبلل وجنتيها..

تكلمت الأم:

- أخوك يوسف.. لقد غادرنا اليوم إلى الكويت.. يقول بأنه لا بد أن ينضم إلى رجال المقاومة الشعبية..

حاولت أن أقنعه أن يبقى هنا ولكنه رفض.. إن أباك يشجعه على هذا..

لم تتكلم هدى.. فتابعت الأم:

- إنني خائفة عليه جداً.. ثم وكأنها تذكرت شيئاً..

- هدى.. ناوليني الصغير.. ألم تستقري على إسم له حتى الآن؟

تنهدت هدى وقالت بيأس:

- كلا.. اختاري له يا أمي أي اسم..

أطرقت الأم برأسها هنيهة ثم هتفت..

- سنسميه جابر.. تيمناً بإسم أمير الكويت.. لعل اللّه يعيد لنا كويتنا وعلى رأسها أميرنا جابر سلمه اللّه من كل شر.. وحمانا اللّه من أعدائنا..

في هذه اللحظة دخلت منيرة إحدى بنات عم هدى وهي تصرخ:

- أسرعا.. التليفزيون يعرض مقابلة مع رجال وسيدات كويتيين وماذا حدث لهم أثناء الغزو..

أسرعت الأم تغادر الحجرة مهرولة وفي أعقابها تسير هدى ببطء محتضنة صغيرها جابر.

* * *

وتمر الأيام بطيئة.. مملة.. وهدى لا تعرف شيئاً عن أخبار زوجها ولا تدري هل هو حي أم ميت.. ولكنه مات في مشاعرها.. لم يعد يمثل لها أي شيء.. كل ما كان يثير قلقها هي ووالدتها هو أخوها يوسف.. فلم يسمعوا أية أخبار عنه.. سوى أن أبطال المقاومة داخل الكويت في حالة نضال مستمر ضد القوى المعتدية.. وأنهم سينتصرون بإذن اللّه..

كان كل شيء في تلك الأيام في حالة ترقب.. وقلق.. وخوف مستمر.. والكل لا يتحدث إلا في السياسة.. الكل نسوا همومهم وتفرغوا للسياسة وشجونها..

كثرت الشائعات الرهيبة لدرجة أن البعض توقعوا بأن تحدث حرب عالمية ثالثة على غرار الحربين العالميتين الأولى والثانية.. وآخرون قالوا بأنها نهاية العالم.. وجماعة تكهنوا بأن يوم القيامة قريب..

وكل يوم يمر.. كان يزداد خوف هدى.. لم تكن تخاف الحرب أبداً.. فإن هذا شيء عادي، فكل حياتها عبارة عن حروب مستمرة.. بدءاً بمقاومتها لوالديها ورفضها للزواج.. وانتهاءً بنضالها ضد زوجها وزوجته وأطفاله.. إنها تخاف على صغيرها جابر.. كيف تتصرف معه إذا ما حدثت المعركة الكبرى أو كما كان صدام يطلق عليها "أم المعارك"؟.

كيف تحميه وهي عاجزة عن حماية نفسها؟ إنه بحاجة إلى رعاية وعناية خاصتين.. فكيف تتصرف معه إذا حدث إطلاق غاز كيماوي لا سمح اللّه؟.

إنها تخاف كثيراً من هذا الشيء.. فقد سمعتها دائماً من وسائل الإعلام بأن طاغية العراق يهدد بأن ينسف الخليج بهذا الغاز كما أباد به الأكراد من قبل.. لم تعد تهتم بطفلها ولا كيف ترعاه وتمارس معه التمارين الخاصة به كطفل معاق.. فقد شغلت الحرب كل تفكيرها وتفكير سائر الناس..

في هذا اليوم اتفقت مع بنات عمها منيرة وأمل على أن يذهبن للتسوق بأسواق العقارية في العليا.. أول مرة تغادر بيت عمها منذ أقامت فيه منذ خمسة أشهر على وجه التقريب..

إن بنات عمها خائفات.. فما أن ركبن في المقعد الخلفي للسيارة.. حتى همست منيرة:

- إنني خائفة فربما حدثت الحرب اليوم.. من يدري إن الرئيس بوش حدد مهلة للمجنون صدام إن لم ينسحب حتى الخامس عشر من يناير فسوف تحدث الحرب..

صرخت أمل:

- واليوم ١٤ يناير فربما تحدث الحرب غداً..

قالت هدى:

- إنني أتمنى أن تحدث الحرب اليوم قبل الغد.. لنستريح ونلقن هذا المجنون درساً لا ينسى..

همست منيرة:

- ولكن يا هدى ألست خائفة؟ لقد هدد صدام بأن يلقي علينا قنابل الغاز الكيماوي فيبيدنا عن آخرنا..

قاطعتها أمل:

- إنه جبان ولن يفعلها..

نظرت هدى من خلال النافذة وهي تقول:

- كلا إنه مجنون ولا نستبعد عليه أي شيء.. ولكن قولي ماذا نفعل في تلك الحالة؟.

استمرت منيرة في صوتها الهامس وكأنها تخاف أن يسمعها أحد:

- عندك الأقنعة التي حصلنا عليها مؤخراً.. حتى جابر الصغير له قناع.. إذن لا خوف..

جابر الصغير.. رباه.. إن مجرد ذكر اسمه يثير شجونها وآلامها.. إنها تشفق عليه.. تشفق عليه حتى من الحياة.. ربما لو كان مات لكان أفضل..

لقد بلغ من العمر خمسة أشهر ونصف الشهر. ولم يتحرك حتى الآن..

كثير من الأطفال في مثل سنه بدأوا الجلوس.. ولكن هو.. ربما لن يتعود الجلوس مطلقاً.. إنه بالكاد يبتسم ثم إنه ضعيف.. ضعيف جداً.. حجمه بحجم الكف.. إنه فعلاً مثير للشفقة والسخرية معاً..

أفاقت من تأملاتها على صوت أمل بنت عمها وهي تضع يدها أمام عيني هدى.. وتقول ضاحكة:

ـ إلى أين ذهب عقلك؟ من أخذ عقلك يتهنى به.. هل هو أبو العيال؟.

ضحكت هدى بسخرية مريرة.. ثم غيرت الموضوع بسرعة وهي تسأل:

ـ هل هذا هو السوق؟ إنه فخم جداً!

* * *

في ليلة ١٧ يناير.. في الساعة الثانية بعد منتصف الليل.. كانت هدى ترقد إلى جوار أمها والطفل بينهما في حجرتهما أسفل البيت..

أما والدها فهو يرقد مع عمها وأولاد عمها في الحجرة الخارجية من المنزل..

أما زوجة عمها وأطفالها الصغار فإنهم ينامون في حجرة الأم في الطابق العلوي من المنزل..

في تلك الليلة.. الفتيات لم ينمن.. أمل ومنيرة وسارة.. كن ساهرات يثرثرن ويستمعن إلى المذياع.. ثم صرخن معاً في وقت واحد عندما سمعن بالخبر الصاعق.. لقد شنت القوات المتحالفة الحرب على العراق لتحرير الكويت..

أسرعت أمل لتوقظ والدها وعمها وإخوانها الرجال.. بينما أسرعت منيرة لتوقظ والدتها.. وسارة ركضت لتخبر هدى وأمها..

وفي لحظة واحدة.. تجمع أفراد الأسرة في حجرة واحدة.. حجرة كانت قد أعدت من قبل كملجأ.. النوافذ المغلقة بالورق اللاصق احتياطياً لأي خطر.. والأقنعة.. والمواد التموينية وكل شيء.. كان الجميع في حالة ذعر وخوف.. ما عدا والد هدى وأخيه.. عمها.. رفضا أن يغادرا حجرتهما وفضلا الإستماع إلى المذياع في الحجرة الخارجية..

كانت ليلة رهيبة.. اشتد فيها الفزع والخوف..

ضمت هدى وليدها جابر والدموع تتلألأ في عينيها.. والخوف يشل كل حركاتها.. فلم تدر ماذا تقول أو ماذا تفعل.. كل شيء فيها تجمد..

حتى سمعت المذيع في المذياع يصرخ فرحاً من إذاعة صوت الكويت بأن الكويت قد تحررت من أيدي صدام وزبانيته..

تلاشى الخوف والقلق في ثانية واحدة.. فتفرق الجميع في أنحاء البيت الكبير.. وأم هدى تمسح دموعها فلا تدري هل تفرح بعودة الكويت أم تبكي خوفاً على ولدها يوسف.. لكنها ابتسمت رغماً عنها ورفعت كفيها إلى السماء قائلة:

- " يا رب أعد لي ولدي يوسف سالماً واحمه من كل شر وأنقذ كويتنا الحبيبة من أيدي الأعادي إنك قادر على كل شيء يا رحمن يا رحيم"..

وسمعت صوتاً خلفها يهمس:

"آمين .. يا رب العالمين"..

التفتت لتجد زوجها "أبو يوسف" يبتسم لها وهو يقول:

- اطمئني يا أم يوسف.. إن شاء اللّه يوسف بخير.. فإعلان الحرب على العراق هو البداية لكل خير إن شاء اللّه.. فغداً تتحرر الكويت ونعود إليها سالمين ويلتئم شمل جميع العائلات الكويتية..

نظرت إليه أم يوسف بقلق وهي تتساءل:

- ترى.. هل سيسكت صدام على هذا الهجوم المكثف أم أنه سيرد عليهم بهجوم كاسح سواء بالغازات السامة أو بغيرها؟

ضحك أبو يوسف وهو يجيبها:

- إن صدام جبان مغرور، ولن يستطيع أن يفعل شيئاً أمام كل هذه القوى المتحالفة.. ليتني أراه الآن بالتأكيد هو كالفأر الذي وقع في مصيدة.. إنه لا يملك من أمره شيئاً.. صدقيني.. هيا.. خذي ابنتك واذهبا لتناما.. هيا يا أم يوسف..

بحثت أم يوسف عن هدى.. فوجدتها في حجرتها تضم جابر الصغير وهي تبكي.. ضمتها أمها إلى صدرها وربتت على شعرها وهي تهمس:

كفي يا هدى.. يجب أن يكون إيمانك باللّه قوياً.. قريباً ستتحرر الكويت وسنعود إلى هناك سالمين وستلتقين إن شاء اللّه بزوجك.. و..

قاطعتها هدى:

- أرجوك يا أمي.. لا تتحدثي عن زوجي.. فأنا لم أسأل عنه ولم أبك من أجله.. إنني أبكي فرحاً ببدء معركة التحرير فقط لا غير..

ابتسمت أمها وهي تقول:

- حسناً يا حبيبتي.. هيا لننام الآن.. وغداً نصحو إن شاء اللّه على أجمل الأخبار.. على عودة الكويت من أيدي المغتصبين..

* * *

لم تنم هدى تلك الليلة.. ولا في الليالي التي تلتها.. كانت خائفة.. خائفة من شيء لا تدريه ومترقبة لشيء لا تعرف كنهه.. كانت تفتعل النوم لترضي والدتها.. ولكن حواسها كلها متيقظة نحو مصدر أي صوت أو أية حركة.. أو أية همسة.. لماذا؟ لا تدري..

وفعلاً بعد ليلتين من هذا.. سمعت صوتاً غريباً.. تنصتت أكثر.. دق قلبها بقوة.. إنها صفارة الإنذار.. أسرعت توقظ أمها وتضم صغيرها يهرولان بسرعة نحو حجرة الملجأ.

وهناك وصل جميع أهل البيت إلى الحجرة.. وعيونهم زائغة.. باكية.. قلوبهم تدق بقوة لم يعهدوها..

أجهشت هدى بالبكاء بعد أن أطفأوا الأنوار إتباعاً لتعليمات مذيع الراديو.. فغرقت الحجرة في ظلام دامس.. وأصوات التفجيرات تدوي من حولهم.. أصوات لا يدرون لها مقراً.. وهل هي في نفس منطقتهم أم بعيداً عنها؟. وهل هذه التفجيرات هي صواريخ كيماوية أم طائرات.. أم ماذا بالضبط؟.

ازدادت ضربات قلوبهم مع سماع صوت المذياع.. "لا يزال الخطر قائماً على مدينة الرياض والمنطقة الشرقية".

ارتفع لسان يلهج بالدعاء " يا رب.. يا رب أنت حسبنا ونعم الوكيل.. يا رب أنت المحيي والمميت وأنت القادر على كل شيء.. اكشف عنا الضر واعفُ عنا إنك أنت أرحم الراحمين"..

تبينت هدى بأنه صوت زوجة عمها.. ولا تدري أين أمها في وسط هذه المعمعة.. حتى سمعوا صوت المذياع مرة أخرى "لقد زال الخطر عن مدينة الرياض، ولا يزال الخطر قائماً على المنطقة الشرقية"..

تنفس الجميع الصعداء.. وأضاءوا الأنوار ليفاجأوا بوجوههم وقد اصفرت من شدة الخوف والوجل.. والدموع لا تزال تبلل وجنات بعضهم.. حتى الرجال منهم.. انتبهوا لذلك حتى قالت أمل بصوت بدا غريباً عليهم بعد كل هذا الصمت:

ـ سالم.. ما هذه الدموع التي أراها في عينيك؟. رجل يبكي.. هذه آخر نكتة..

انتفض سالم الشقيق الأكبر لأمل وهو يقول:
ـ أنت واهمة.. هذه ليست دموعاً.. هذا عرق..
ضحكت أمل بهيستيرية وهي تقول:
ـ عرق.. واضح.. واضح جداً.. العرق يسيل من العيون؟
ضحك الجميع بعصبية.. بينما اختفى سالم عن الأنظار خجلاً من الموقف..
بعد قليل سمعت هدى زوجة عمها وهي تؤنب سالم على بكائه:
ـ من العيب عليك أن تبكي يا ولد.. أنت رجل ومن المفروض أن تكون ضمن الجنود المحاربين والمدافعين عن الوطن.. فكيف باللّه عليك تبكي كالنساء؟.
صرخ سالم بعصبية:
ـ ومن قال لكم إنني أبكي.. إن أمل إنسانة حقودة وتكذب عليكم..
تكلمت الأم بهدوء:
ـ سالم يا حبيبي.. هل تصورت موقف يوسف ابن عمك.. إنه في مثل سنك.. وهو الآن وحيد في الكويت بدون أهل يحارب من أجل وطنه.. احذر يا بني إن الجبن شيء مثير للسخرية..
أجاب سالم بصوت خفيض:
ـ حسناً يا أمي.. حسناً.. عن إذنك لأنام..
وما أن مشى خطوات قليلة حتى سمع صوت أمل الممزوج بالسخرية وهي تقول بصوت عال يسمعه كل من في البيت..
ـ سالم.. ما أخبار العرق؟.
نظر إليها نظرة صاعقة وهو يقول:
ـ اسكتي من فضلك..
ولكنها ضحكت أكثر وهي تقول:

ـ لقد رأيتك بعيني وأنت ترتجف من شدة الرعب..

صرخ فيها:

ـ أنا.. أنا أرتجف.. يا لك من كاذبة.. إنما كان الجو بارداً.. ولذلك.. أنا..

ثم أسرع خارجاً دون أن يكمل جملته تلاحقه ضحكات الجميع.. ضحكاتهم الخائفة.. المهزوزة القلقة..

وفي الغد صحا أهل البيت على مفاجأة كبرى.. لقد اختفى سالم.. لا يدرون أين ذهب... بحث عنه والده في كل مكان.. سأل عنه كل أصحابه.. ولم يعثر له على أثر..

أمه تبكي وتعنف ابنتها أمل لأنها السبب فيما يبدو باختفائه.. بسخريتها المريرة منه..

عند العصر.. كانت المفاجأة.. وجدوا ورقة صغيرة مكتوبة بخط سالم تحمل العبارات التالية:

"أمي.. لا تخافي علي.. لقد حققت لك رغبتك.. عندما تجدون هذه الورقة أكون قد غادرتكم إلى الجبهة لأتطوع للدفاع عن بلادي".

بكت أمه بحسرة.. وطمأنتها أم هدى بأنه حتماً سيعود منتصراً بإذن اللّه..

وفي المساء نسوا كل شيء عن سالم بعد سماع صفارة الإنذار.. أسرعوا إلى حجرة الملجأ.... سمعت هدى أمها تقول:

ـ "تباً له هذا الصدام.. إنه معتوه"..

أمضوا في الحجرة فترة بسيطة.. خرجوا بعدها بعد أن سمعوا صوت المذياع بأن الخطر زال عن منطقة الرياض..

مضت بهم الحال على هذا المنوال.. صفارات إنذار.. أحياناً في الليل.. وأحياناً في الصباح الباكر.. وأوقاتاً في عز الظهر..

إنه يريد أن يقلقهم.. أن يتلف أعصابهم.. وفعلاً وقعت هدى مريضة بعد أسبوعين من بداية الحرب.. أعصابها تمزقت..

ومشاعرها تفتتت.. وعقلها تشتت.. فلم تقو على الصمود أكثر من ذلك، فوقعت طريحة الفراش.. لا تقوى على النهوض حتى عند سماع صفارة الإنذار..

وابتدأ أهل البيت كلهم يعتادون على صفارات الإنذار، فلا يرتعبون عند سماعها بل إن أكثرهم كان يخرج إلى السطوح ليتفرجوا على كيفية تحطيم صاروخ باتريوت لصاروخ سكود.. كانوا يهللون فرحاً لهذا المنظر الغريب..

ضحكت هدى من أعماق قلبها عندما سمعت قصة جارهم الذي وقف على السطوح ليتفرج على إصطدام باتريوت بصاروخ سكود.. وفوجىء بأجزاء من حطام الصاروخين تسقط على منزله هو.. زلزلته المفاجأة التي لم يكن يتوقعها ولكنه لم يصب بسوء.. سوى سقوط بعض الجدران من بيته..

* * *

دخل شقيق هدى الأصغر إلى البيت وهو يحمل جريدة الظهيرة.. أسرع إلى حجرة هدى فوجدها ترضع طفلها جابر بزجاجة الحليب.. صرخ فيها:

ـ هدى.. ألم تدري بعد.. لقد قرر صدام أن ينسحب من الكويت..

سقطت الزجاجة من يدها وهي تسأله بلهفة:

ـ أحقاً تقول؟ كيف ومتى.. و.. من أخبرك بهذا؟.

رفع الجريدة أمام عينيها وهو يقول:

ـ قرأتها هنا..

ثم أسرع مغادراً الحجرة دون أن تتمكن هدى من قراءة الخبر.. فأسرعت وراءه لتأخذها منه ولكنه كان قد خرج إلى الشارع..

سرى هذا الخبر في البيت كما تسري النار في الهشيم.. وازدادت التساؤلات والهمسات والمكالمات الهاتفية مع الأهل والجيران..

ولكن اتضح بأن الصبي كاذب.. وأن هذه مجرد شائعة أطلقها بعض الغلمان من أبناء الجيران وأن صدام لا يزال متمسكاً بالكويت بكل قوة ولا يريد أن يغادرها..

انتهت المدة التي حددها الرئيس بوش لصدام حسين لكي ينسحب من الكويت، وإلا بدأت الحرب البرية.. وبدأ معها القلق.. والخوف.. والرهبة.. فقط ازداد عدد القتلى الجنود الذين يتساقطون يومياً.. وصدام يتمسك بموقفه ولا ينسحب.. والصواريخ لا يزال يقذفها كل يوم على مدن المملكة الآمنة.. ليروع سكانها ويزلزل اطمئنانهم ويحطم قلوبهم..

وفعلاً أطلق صدام صاروخه الأخير على المنطقة الشرقية، فوقع على معسكر لإحدى الفرق الأمريكية، فقتل منها ما يزيد على السبعين قتيلاً.. مما أثار الفزع بين الناس وتوقعوا منه الكثير والكثير..

وكانت المفاجأة أن أعلن صدام انسحابه من الكويت بعد هزيمته المنكرة على أيدي القوات المتحالفة وبعدما شعر بأنه مهدد بالفناء.. أعلن انسحابه..

في ذلك الصباح المشرق.. كان الجميع سعداء بانتهاء الأزمة وانقشاع الغيوم.. لتبدو شمس الحق ساطعة.. مشرقة.. سعيدة..

في مساء اليوم نفسه.. دخل إلى البيت الكبير جندي يرتدي بزة عسكرية.. مرفوع الرأس.. باسم الوجه..

صرخ والد هدى:

ـ سالم.. حمداً للّه على سلامتك يا ولدي.. أسرعت أم سالم راكضة.. لتضم ولدها إلى صدرها وتبكي.. تبكي كثيراً..

قبلته أمه وضحكت أمل قائلة:
ـ أهلاً بـالبطل الشـجاع.. يجب أن تقدم لـي أعظم هديـة.. فأنـا التـي صنعت منك بطلاً..
ابتسم بسعادة وهو يقول:
ـ بل أنا الذي صنعت نفسي.. ثم تابع كلامه قائلاً:
ـ ألم تعرفوا أخباراً عن يوسف حتى الآن؟.
بكت أم يوسف وهي تقول بأسى:
ـ بلى يا بني.. حتى الآن لا ندري عنه شيئاً..
طمأنها سالم بقوله..
ـ اطمئني يا امـرأة عمـي.. بالتـأكيد سيعود.. ربمـا الليلـة.. أو غداً.. فنحن على الحدود نرى شباباً كويتيين كثـيرين مـن رجـال المقاومـة.. وكنـت أسـألهم عـن يوسـف، ولكنهـم لـم يكونـوا يعرفونــه.. فهـم لا يتعاملون مع بعضهم بأسمائهم الحقيقية.. لا تبـك يـا خـالتي.. فيوسف سيعود قريباً..
مسحت هدى دمعة فرت من عينيها وهي تتساءل داخل نفسـها عن مصير أخيها.. وهل هو حيّ يـرزق.. أم.. هزت رأسـها وكأنهـا تطرد الفكرة المرعبة من عقلها..
ثم أسرعت لتنضم مع الجميع الذين تحلقوا حول سالم يسمعون منه أخبار الحرب وبعض المواقف المرعبة والطريفة أيضاً..
شيئاً فشيئاً.. أحست هدى بأنها تبتعد عن هذا الجو.. أخذتها أفكارها بعيداً حيث بيتها الفخم في الكويت.. ترى هل بقي علـى حالـه.. أم نُهب وسُلب كما حدث مع أغلب البيوت.. وثيابها الفخمة وبقيـة مجوهراتها التي تركتها في بيت زوجها.. "زوجها" رنت هذه الكلمة فـي أذنيها وكان لها وقع غريب.. زوجها.. إنها لا تشعر أبداً أن لها زوجاً..

لقد نسيت كل شيء عن حياتها معه.. نسيت حتى اللحظات السعيدة.. وهل هناك لحظات سعيدة؟

أفاقت على صوت سالم وهو يقول:

- وعندما رأيته ينزف أسرعت راكضاً لأحمله بين ذراعي وأصوات الدبابات تدوي من حولي.. كانت لحظة رهيبة.. عندها..

لم تسمع هدى بقية كلامه.. أخذتها الدوامة.. ثم نظرت إليه وهو يتحدث.. سالم.. إنه وسيم بوجهه الأسمر القوي وشاربه الخفيف وعينيه العسليتين.. إنه أجمل من زوجها بكثير.. وأصغر منه أيضاً بكثير.. إنه في الخامسة والعشرين من عمره.. إنه يناسبها عمراً.. إنه في سن عماد.. عماد؟ أفاقت من أفكارها على عيني سالم وهو يحدق في وجهها بدهشة.. انتبهت لنفسها، فأشاحت بوجهها سريعاً.. لقد اكتشفت أنها تنظر إليه بتركيز شديد..

تلفتت حولها فلم تجد أحداً.. لقد ذهبوا جميعاً إلا هي.. لم تنتبه بأن سالم انتهى من كلامه منذ فترة طويلة.. تلجلجت وهي تقول:

- آسفة.. لم أنتبه.. لقد.. أقصد.. إنني سرحت قليلاً..

ضحك بسعادة وهو يقول:

- إلى ديار الحبيب.. أليس كذلك؟.

تجهم وجهها بشدة.. إنه لا يفهم.. حتى هو لا يفهم..

أسرعت هاربة من عينيه.. لتلوذ بحجرتها وتضم مأساتها داخل أضلعها.. لتحترق بها.. وتتفجر كسحب من الدخان تلف حياتها بغمامة سوداء لا ترى من خلالها شيئاً.. أي شيء..

* * *

بعد يومين.. بينما أم يوسف راكعة تصلي صلاة الظهر.. دخل يوسف إلى البيت.. صرخ الجميع فرحاً بسلامة وصوله..

أنهت أمه صلاتها سريعاً.. لتستقبله بالدموع والقبلات.. دمعت أعين الجميع لهذا المنظر المؤثر..

أخبرهم بكلمات سريعة.. كيف أن الكويت بقيت حطاماً بعد خروج المعتدين مهزومين.. وكيف أن المحلات والبيوت وحتى المستشفيات كلها نهبت وجردت من محتوياتها..

ثم شرح لهم بإيجاز مهمته الصعبة وزملائه من رجال المقاومة، وكيف كانوا يوزعون المنشورات بعد أن يخفوها تحت ثيابهم أو داخل أحذيتهم وأمتعتهم..

لم يتكلم كثيراً.. ثم استأذن لينام.. ضحك سعد ابن عمه الصغير وهو يداعبه قائلاً:

ـ اليوم موجز الأنباء وغداً الأخبار بالتفصيل..

ابتسم يوسف وهو يقول:

ـ نعم.. غداً الأخبار بالتفصيل.. لا تهتم سأشرح لكم كل شيء غداً..

وكأن الكويت قد مستها يد الخير.. فانتفضت ونفضت عنها غبارها.. وارتدت أزهى ثيابها وأجملها.. لتسر بها أعين أبنائها.. وتمحو من ذاكرتها أيام الإغتصاب المروعة.. لتنسى كل شيء وتفتح أبوابها للمستقبل المزهر المليء بالأفراح والمفاجآت السعيدة..

عادت حياة هدى كما كانت في السابق مع فارق بسيط، هو هذا القيد المرعب الذي يثقل أيامها ويعصف بتفكيرها.. ويبدد أحلامها في حياة هانئة سعيدة..

مضت أشهر منذ عادوا إلى الكويت.. وضجت الكويت بأهلها وناسها.. وعادت الحياة كما كانت قبلاً عدا هذه اللفحات الحارة التي تهب عليهم بين فينة وأخرى من حرائق آبار البترول وبضعة ألغام تنفجر بين يوم وآخر.. ولكن زوجها لم يظهر.. ولم يسأل ولم تحاول

هي بدورها أن تسأل عنه، فإنها لا تريد منه شيئاً.. وابنه أيضاً لا يريده.. إنه مجرد غلطة في حياتها..

في مساء اليوم نفسه.. طلبها والدها ليحادثها على إنفراد.. دهشت لطلبه.. منذ أمد بعيد لم يحاول محادثتها على إنفراد أبداً.. فكرت وهي في طريقها إلى والدها..

"ترى ماذا يريد مني؟ هل ظهر زوجي أخيراً.. أو.. أو".

وضاعت في زحمة أفكارها.. لتواجه والدها ساهمة.. واجمة.. ورأسها يزدحم بألف سؤال وسؤال لفتها شحوب وجه والدها.. نعم إنه كان شاحباً منذ أزمة الكويت.. ولكن وجهه إزداد نحولاً واصفراراً وكأنه يعاني من صراع داخلي يعجزه عن الكلام..

أفاقت على صوت والدها وهو يقول:

- لقد تغيرت كثيراً يا هدى.. أصبحت فتاة ناضجة وعاقلة..

ابتسمت بهدوء وهي تجيب:

- الأيام يا أبي هي أكبر معلم.. فقد تعلمنا الكثير والكثير.. حتى ياسر شقيقي الأصغر إنني أشعر به وكأنني أمام رجل لا طفل في الثامنة من عمره..

هز والدها رأسه بأسى ثم قال:

- المهم هو أننا اجتمعنا على خير وعادت لنا ديرتنا.. وعشت لأموت في بلدي عزيزاً كريماً..

قاطعته هدى بسرعة:

- بعد عمر طويل يا أبي.. نحن نحتاج إليك..

تجاهل كلماتها وقال بترو:

- هدى يا ابنتي لو ظهر زوجك فجأة وطالب بابنه.. ماذا تفعلين وقتها؟

أحست هدى بقلبها يهوي بين أضلعها وهي تهتف:

ـ ماذا تقصد يا أبي.. هل ظهر زوجي عبد اللّه مرة أخرى؟.

نظر إليها والدها بهدوء وهو يقول:

ـ ما بك يا بنيتي؟ إنني أقول لو.. لو ظهر.. إنني فقط أريد أن أختبر مشاعرك تجاهه..

أطرقت هدى برأسها في صمت.. ثم اغرورقت عيناها بالدموع.. وقالت أخيراً:

ـ بالطبع .. لن أسمح لأحد مهما يكن بانتزاع ابني.. إنه قطعة مني..

تردد والدها قبل أن يقول:

ـ إذن أحمد اللّه على ذلك..

ثم تابع بصوت خفيض:

ـ لقد جاءني زوجك اليوم.. إنه لم يطلب مني ابنه أبداً.. بالعكس لقد أبدى استعداده بأن يترك الطفل لديك طوال العمر، كما أنه مستعد للإنفاق عليه..

نظرت هدى لأبيها في ذهول.. وفي عينيها سؤال لم يتم.. وإجابة ذبيحة.. عرفتها قبل أن تسمعها..

لم يتم والدها كلامه.. فقط مد يده إلى جيبه ليخرج منه ورقة سلمها إليها بأيدٍ مرتعشة..

قرأتها وهي تعرف مسبقاً ما الذي تحتويه.. أحست بالدنيا تدور بها وهي تقرأ ورقة طلاقها..

لم تبك.. لم تذرف دمعة واحدة.. نهضت واقفة والورقة ترتجف في يدها.. ثم سألت والدها بسخرية:

ـ حسناً.. هل هذا هو كل شيء؟.

هز والدها رأسه بأسى دون أن يجيب.. خرجت من حجرته ممسكة ببطاقة دخولها إلى عالم المطلقات.. عالم آخر.. لم تعشه قبلاً.. لتسقط نقطة أخرى في كأسها المترع بالأحزان..

ضمتها والدتها وهي تبكي.. وهدى متماسكة.. ترفع رأسها بكبرياء مزيفة.. وتبتسم ببرود ثلجي.. وكأن الدنيا كلها تسخر من أحزانها..

ثم أسرعت إلى طفلها الصغير جابر تحتضنه بحب ولهفة.. وإنتظار.. وكأنه هو الأمل الباقي لها في دنياها.. الأمل البعيد.. لدنيا رحبة.. باسمة.. سعيدة..

فجأة وفي غمرة أفكارها.. برقت بذهنها فكرة.. لم تكن فكرة إنما كان خاطراً.. خاطراً غريباً، ولكنها أسرعت لتنفيذه بأيد مرتبكة.. أدارت هدى أرقام بيت زوجها.. ارتبكت أكثر.. وهي تفكر.. منذ متى لم تطلب الرقم؟.. سنة؟.. ربما أكثر!.. لا تتذكر بالضبط منذ متى..

ارتجفت عندما سمعت صوتاً أنثوياً ناعماً يقول:

ـ من المتكلم؟

إنها زوجته.. نعم إنها هي.. زوجة زوجها السابق.. ولكن حزناً غريباً يلف صوتها بتناغم غريب.. ترددت هدى طويلاً قبل أن تقول:

ـ أنا هدى.. كيف حالك يا أم خالد؟.

أحست أم خالد بما طرأ من تغير، وكأنها فوجئت بها.. لم تفاجأ بها قدر ما أذهلتها جرأتها العجيبة..

مضت عدة دقائق.. وكأن المرأة تحاول أن تصدق الواقع.. حتى همست بالصوت نفسه ذي النبرات الحزينة..

ـ أهلاً بك.. هل عرفت بما حدث؟.

قبل أن تكمل كلماتها.. قاطعتها هدى..

ـ أعرف لقد طلقني زوجك.. أليس كذلك؟ بالتأكيد أنت الآن سعيدة جداً.. ولكن أحب أن أخبرك أنني..

قبل أن تكمل هدى جملتها توقفت.. توقفت على صوت بكائها.. المرأة الأخرى.. إنها تبكي بشدة.. وبحزن عميق.. أحست هدى وقتها بالعدوى تسري إليها.. وإنها بحاجة شديدة إلى البكاء.. وأن دنياها مليئة بالدموع والشهقات الباكية..ولكن.. لماذا تبكي هذه المرأة؟.. ما الذي يبكيها لهذه الدرجة المأساوية.. ترى هل هي حزينة على طلاق هدى؟ لا.. غير معقول..

تكلمت هدى ورعشة شديدة تسري في جسدها:

ـ ماذا بك يا أم خالد؟ هل حدث لكم شيء.. ولم تسمع سوى البكاء.. وبعد فترة تجاوزت خمس دقائق.. تكلمت أم خالد بصوت تقطعه الشهقات..

ـ خالد يا هدى.. لقد مات..

صرخت هدى رغماً عنها متسائلة:

ـ رباه.. كيف..؟

بصوت باك أجابت الأم الثكلى:

ـ في أول أيام حدوث الأزمة.. هربت أنا وأبو خالد والطفلتان.. كان خالد موجوداً في بيت خاله منذ البارحة.. حاولت إقناع والده بأن نعود لنأخذه، ولكنه طمأنني بأنه في بيت خاله ولا خوف عليه.. وبالتأكيد سيعود معهم.. ومن وقتها لم أره.. قيل لي بأنه خرج في مظاهرة وقتل أثناءها.. وقيل لي بأنه اعتقل من قبل الجنود العراقيين ثم قتل..وضاعت الحقيقة بين الناس، ولكنني لم أنس.. إنني أتعذب كل يوم.. عذاب الندم يخترق قلبي.. لماذا لم أعد لأخذه؟ حتى لو عدت وحدي وقتها وقتلت معه لكان أهون علي من الحياة بدونه.. ثم انخرطت في بكاء مرير.. يهز الوجدان ويحطم القلوب..

همست هدى بأسى:

ـ أنا آسفة.. حقاً أنا آسفة.. يعوضك اللّه خيراً إن شاء اللّه.. وضاعت صدى كلماتها وسط الحزن العميق.. فأحست بأن كلماتها لا جدوى لها، وبأن من الأفضل لها أن تنسحب بصمت.. فهمست مرة أخرى بصوت حزين..

ـ يعوضك اللّه يا أم خالد.. مع السلامة..

وضعت سماعة الهاتف في مكانها.. وشعور بالأسى يجتاحها.. لم تكن تأسى على نفسها.. فقد أحست بأن أحزانها مجرد نقطة في بحر.. وأن أحزان البشر تغرق الوجود.. ولا وجود للسعادة الكاملة..

* * *

جلست هدى في الصف الطويل الممتد حتى آخر حجرة الإنتظار.. دقائق مرت كأنها ساعات حتى سمعت صوت الممرضة تقول بصوت مسموع:

ـ جابر عبد اللّه عيسى..

نهضت هدى سريعاً تحمل طفلها بين يديها.. ثم دلفت إلى حجرة الطبيب..

أمضى الطبيب وقتاً غير قصير وهو يكشف على جابر..

وأخيراً أطلق من صدره زفرة أسى.. نظرت هدى إلى الطبيب ضارعة.. ولكنه هتف بيأس:

ـ آسف جداً.. ولكنني لا أعتقد بأنه سيمكنه المشي كالأطفال الآخرين.. إن قدميه ضعيفتان..

أردف الطبيب بعد أن رأى نظرة الإرتياع مرتسمة في عيني هدى:

ـ لا تخافي.. إن الأمل باللّه كبير.. ولكن لا بد من التحاقه بمركز رعاية الأطفال المعاقين ليتمكن من التدريب والتمارين المكثفة.. وكل شيء بعد ذلك على اللّه..

رغماً عنها تساقطت الدموع من عينيها وهي تدعو اللّه في سرها بأن يتلطف بهذا المخلوق الضعيف.

قبل أن تخرج من الحجرة أعطاها الطبيب ورقة تحويل إلى مركز رعاية الأطفال المعاقين.. طوتها بعناية ووضعتها داخل حقيبتها ثم توجهت إلى طبيب العيون ليقول رأيه النهائي بعيني طفلها.. ولم يكن طبيب العيون ارحم من طبيب الأطفال..

فبعد كشف طويل على عيني جابر قال لها بحسم:

ـ لا بد من عملية جراحية لعيني جابر.. لكي يرى بشكل سليم.. فإنه لا يرى مطلقاً بعينه اليمنى.. جزعت هدى ولكنها سلمت أمرها للّه.. فلا مردّ لقضائه..

فأسرعت إلى البيت لتخبر أمها بما حدثها به الأطباء.. فطمأنتها والدتها، وقالت لها بوجه باسم:

ـ لا تخافي يا حبيبتي.. إجعلي إيمانك باللّه كبيراً.. فاللّه قادر على كل شيء.. فما بين غمضة عين وانتباهتها يغير اللّه من حال إلى حال.. ماذا تدرين بما يحدث غداً.. فربما تشاء قدرة اللّه أن يمشي جابر كبقية الأطفال.. أما عيناه فلا بأس يا ابنتي أن نعمل له العملية.. ويقدر اللّه ما يشاء..

ألقت هدى برأسها المتعب إلى الوراء.. وفجأة نهضت من مقعدها كالملسوعة وصرخت..

ـ فاطمة يا أمي.. فاطمة.. رباه كيف نسيتها..

نظرت إليها والدتها بدهشة وهي تسألها:

ـ ما بها فاطمة.. ألم يخبرك أخوك يوسف أنه رأى أخاها في الكويت أيام الحرب.. وأخبره بأن فاطمة وبقية أسرته في لندن..

أجابت هدى بسرعة:

ـ نعم يا أمي.. نعم إني أتذكر هذا.. ولكنني لم أحاول أن أتصل بها بعد العودة إلى الوطن بل إنني حتى لا أدري هل عادت إلى الكويت أم لا تزال في الخارج؟.

وما أن أنهت هدى كلماتها هذه، حتى أسرعت راكضة إلى الهاتف.. أدارت أرقامه بسرعة.. إنها لم تنسَ أبداً رقم هاتف صديقتها.. مرة.. مرتين.. ثلاث.. ولا أحد يرد على الهاتف..

همست هدى لنفسها بيأس:

ـ لا بد أنهم لا يزالون في الخارج..

في المساء بعد أن عاد والد هدى من عمله.. كانت هدى ووالدتها جالستين على أريكة في الصالة تتفرجان على برامج التليفزيون.. وجابر الصغير يرقد بهدوء على أريكة أخرى.. والأولاد يلعبون في حديقة المنزل.

مدّ الأب ببطاقة إلى هدى وهو يقول:

ـ هذه بطاقة دعوة أعطاها لي أبو عماد جارنا.. غداً زواج ابنه عماد..

ابتسمت الأم وهي تقول:

ـ ومن سيتزوج؟ إنني لم أر أم عماد سوى مرة واحدة بعد الأزمة، ولكنها لم تقل لي شيئاً..

أجاب الأب بغير إهتمام:

ـ لا أدري، ولكنني أعتقد أنها ابنة عمه.. هل ستحضرون حفل الزفاف؟..

وزع نظراته بين الأم.. وهدى.. فألفى هدى صامتة.. واجمة.. حزينة..

فسألها بهدوء:

- ما بك يا بنيتي.. بمَ تفكرين؟

ردت الأم:

- لقد أوصلها يوسف اليوم إلى المستشفى.. فأخبرها الطبيب بأنه لا بد من إجراء جراحة لعيني جابر.

اجتاحت قلب الأب غصة حزن، ولكنه اغتصب ابتسامة ثم قال بالهدوء نفسه:

- لا عليك يا بنيتي.. إن جابر رجل الآن وسيتحمل العملية.. لا تقلقي عليه.. فهناك المئات من الناس يجرون العمليات كل يوم.. فإن العملية شيء بسيط.. لقد سبق وأن أجريت عملية في عيني.. أتذكرين يا أم يوسف.. أتذكرين يوم.. ولم تسمع هدى بقية كلماته.. كانت متعجلة لتنفرد بنفسها.. لتطلق العقال لهذه الأحاسيس الصارخة المكبوتة داخلها..

عماد سيتزوج.. غداً ليلة زفافه.. عماد.. حبيب الطفولة.. وذكرى مراهقتها وشبابها.. عماد الإنسان الوحيد الذي تعلق قلبها به وتمنته زوجاً من أعماق قلبها.. عماد.. ترى هل تستحقه هذه الفتاة التي سيتزوجها؟..

طردت هذه الأفكار سريعاً من رأسها، وهي تؤكد لنفسها بأنه حتى لو لم يتزوج.. هل سيفكر بالزواج بها بعد أن عرف مأساتها.. أفاقت على صوت والدها وهو يسألها:

- ومتى حدد الطبيب موعد العملية؟

فوجئت ثم أجابت:

- الأسبوع القادم.. يوم السبت..

هز الأب رأسه بأسى وهو يقول:

- لا بأس عليك يا ابنتي.. سوف تعود عيناه صحيحتين بعد العملية وسوف يرانا بوضوح أكثر.. أين هو؟

نهضت هدى وناولت أباها جابر الصغير.. فأخذ والدها يلاعبه ويضحك معه.. وهدى بعيدة عنهما في عالم آخر.. بعيداً.. مع عالم الكلية.. والبنات.. وصديقتها فاطمة.. ومعلماتها:

وفجأة وكأنها تتذكر شيئاً.. صرخت هدى بفرحة:

ـ أمي.. يقولون بأن الجامعة استأنفت الدراسة فيها.. ما رأيك يا أبي.. إنني أريد أن أعود لدراستي.

لمعت الفرحة في عيني الأب وهو يقول:

ـ نعم يا ابنتي.. نعم بارك اللّه فيك.. إعتباراً من الغد سأوصلك لتقدمي أوراقك..

* * *

نجحت العملية الصغيرة التي أجريت لجابر في عينيه وبدأ يتماثل للشفاء.. في الوقت نفسه الذي انخرطت فيه هدى في دراستها الجامعية.. وبدأت تنكب على دروسها من جديد، وكأنها لم تغب عنها لحظة واحدة..

وفي أحد الأيام، وبينما كانت هدى جالسة في بوفيه الكلية تتناول إفطارها رأت فاطمة.. صديقتها فاطمة.. صرخ الإثنتان بصوت واحد.. وهما تحتضنان بعضهما بلهفة وشوق..

صرخت هدى:

ـ فاطمة.. أين أنت كل هذه المدة؟.. لقد افتقدتك!..

تنهدت فاطمة بعمق وهي تقول:

ـ أخبريني أولاً عن أخبارك.. أما قصتي أنا فدعيها للنهاية.. فإنها قصة طويلة..

رمقتها هدى بقلق.. ثم قالت:

ـ إنك تبدين ضعيفة.. منهكة.. ما بك؟..

اغتصبت فاطمة ابتسامة حزينة ثم قالت:

ـ قلت لك أخبريني أولاً عن أخبارك ثم أحكي لك أنا قصتي..

همست هدى وهي تنظر إلى لا شيء..

قصتي تقريباً لا جديد فيها.. لقد سافرنا إلى السعودية إبان الأزمة.. وعندما عدنا لم نجد شيئاً قد تغير.. بيتنا كما هو والحمد للّه.. وكذلك بيوت جيراننا.. ربما الجديد في حياتي هو أنني غدوت مطلقة..

شهقت فاطمة..

ـ ماذا قلت؟.. مطلقة؟.. منذ متى؟.. ولماذا طلقك؟.

ابتسمت هدى بسخرية وهي تقول:

ـ لقد طلقني منذ شهور.. وصدقيني حينما أقول لك بأنني لا أدري لماذا طلقني.. ولكن تعرفين لقد مات ابنه الأكبر خالد أثناء أزمة الكويت..

أطرقت فاطمة برأسها تفكر بصمت ثم قالت بصوت ضعيف:

ـ أنت لا تدرين ماذا حدث لي يا هدى.. ولكنك تعرفين بالطبع أننا كنا في لندن وقت غزو الكويت، وعشنا هناك أياماً عصيبة.. كنت أخرج في مظاهرات مع بقية فتيات الكويت.. وكنا نتعذب، ونشعر بأننا لاجئين وكرامتنا قد أهدرت في الأرض..

ولكن.. أتدرين ماذا حدث لي تلك الأيام.. لقد خطبت وتزوجت..

صرخت هدى بفرحة:

ـ أحقاً يا فاطمة.. لماذا لم تخبريني في البداية.. أحقاً تزوجت.. ومتى؟.

ابتسمت فاطمة بحزن وهي تهمس:

ـ نعم تزوجت.. تزوجت منذ سنة تقريباً.. تزوجت شاباً كويتياً أثناء الأزمة في لندن.. قربتنا أزمتنا المشتركة، ووحدت بيننا في انسجام تام، فأحببته خلال شهر واحد من تعارفنا، وما أن انقشع غمام الأزمة

الرهيبة وتحررت الكويت حتى سقطت الأقنعة.. ورأيت زوجي كما لم أره من قبل.. إنساناً سكيراً.. مدمناً.. هوايته معاكسة الفتيات في الشوارع..

نظرت إليها هدى بأسى.. دون أن تجيب..

فتابعت فاطمة:

ـ وهكذا عشت معه حياتي راضية بنصيبي.. ولكنه لم يرض كما قال المثل المصري "رضينا بالهم والهم مش راضي بينا" فرفض أن أكمل دراستي.. وأبقاني حبيسة الجدران الأربعة، لا أخرج منها إلا لزيارة أمي.. وأنا الآن حامل في شهري الثالث..

همست هدى بصوت خافت..

ـ مبروك..

ابتسمت فاطمة بحزن وهي تقول:

ـ شكراً.. إنني آمل بأن يغير هذا الصغير القادم من حياتنا.. على الأقل أن يعيد لأبيه صوابه فيرى أنه أصبح زوجاً وأباً فيتحمل المسؤولية..

ردت هدى:

ـ بالتأكيد يا فاطمة.. لا تيأسي.. فإن اللّه قادر على كل شيء.. أتدرين يا فاطمة.. يخيل إلي أن الدنيا مليئة بالمصائب، وأن لكل إنسان نصيباً منها يتحمله سواء عاجلاً أو آجلاً.. ولكن فرج اللّه قريب.. ألا ترين حالتي.. إنني الآن أسعد حالاً من السابق.. على الأقل استعدت حريتي..

سألتها فاطمة:

ـ وكيف حال جابر الصغير؟ لقد سمعت من أخي بأنك أسميته جابر..

أجابت هدى بإيماءة من رأسها:

ـ نعم .. إنه بخير.. ولكنه لا يزال على حاله.. لا يمشي ولا حتى يستطيع الجلوس رغم أنه يقترب من الثانية من عمره..

هتفت فاطمة:

- لا عليك.. مع الوقت سوف يستطيع المشي والجلوس.. فكثير من الأطفال يتأخرون هكذا..

ثم نظرت فاطمة إلى ساعة يدها، وهبت واقفة وهي تقول:

- يا إلهي لقد تأخرت، سيقلب الدنيا فوق رأسي لو عرف بأنني ذهبت إلى الجامعة.. فقد أخبرته بأنني سأذهب إلى أمي.. ثم ذهبت إلى بيتكم لأبحث عنك فأخبرتني أمك بأنك في الجامعة.. صدقيني.. صدقيني يا هدى.. إني فرحة لك جداً..

همست هدى:

- شكراً لك.. أشكرك كثيراً.. ألا أخبريني أين بيتك لأزورك.. ورقم هاتفك أيضاً..

أجابت فاطمة:

- لقد عدنا قبل يومين من لندن.. ونحن حالياً نسكن عند أهل زوجي.. وقريباً ننتقل إلى شقتنا الخاصة.. عموماً هذا رقم هاتفي..

وأخرجت فاطمة من حقيبتها بطاقة صغيرة، وناولتها لهدى ثم ودعتها وذهبت..

* * *

عادت هدى إلى المنزل وهي تكاد تطير من الفرحة.. فكانت تقفز السلم قفزاً.. حتى دخلت إلى المطبخ، فوجدت والدتها مشغولة بإعداد الغذاء.. فصرخت هدى:

- أمي لقد نجحت.. نجحت بامتياز.. ألقت الأم ما في يديها وأسرعت تحتضن هدى بحب وفرحة وسرعان ما ساد البيت صخب شديد.. فأسرع الأولاد يهنئون هدى بنجاحها.. قال لها يوسف:

- مبروك يا هدى.. عقبال نجاح جابر..

اغرورقت عينا هدى بالدموع وهي تنظر إلى طفلها جابر.. وتتمنى لو يمشي.. يمشي فقط.. ولا تريد من الدنيا أي شيء آخر..

ضمت جابر إلى صدرها وهي تدعو اللّه في سرها أن يشفيه ليتمكن من الجلوس والمشي كبقية الأطفال الآخرين..

وفي غمرة إحساسها بالحزن الممزوج بفرحة النجاح.. علا رنين الهاتف.. أسرع يوسف ليرد عليه ثم أعطى السماعة لهدى وهو يقول بصوت خافت "إنها فاطمة".. مسحت هدى دموعها وهي ترد على الهاتف:

ـ أهلاً.. أهلاً فاطمة.. كيف حالك؟.

ـ بارك اللّه فيك.. عقبالك إن شاء اللّه..

ـ نعم.. نعم اليوم..

ـ لا.. لن أخرج هذا المساء..

ـ أهلاً وسهلاً بك في أي وقت..

ـ حسناً ننتظرك أنا وأمي الليلة.. إلى اللقاء..

ما أن أعادت سماعة الهاتف إلى موضعها حتى سألتها والدتها:

ـ هل ستزورنا فاطمة الليلة؟.

أجابت هدى:

ـ نعم يا أمي.. سوف تأتي لتبارك لي النجاح..

سألت الأم مرة أخرى:

ـ وهل ستتعشى معنا؟.

تاهت هدى بأفكارها وهي تجيب والدتها:

ـ ربما.. لا.. أعتقد نعم..

خلعت الأم رداء المطبخ وهي تقول:

ـ عموماً سنطبخ للعشاء سواء تعشت معنا أم لا..

ثم أردفت:

ـ هدى.. ما بك.. هيا أعط جابر أحد أخوانك ليلاعبه وتعالي معي إلى المطبخ.. فأبوك قادم بعد قليل.. سيفرح كثيراً عندما يعلم بنجاحك فما كان يتوقعه أبداً.. إنه يحبك جداً..

وسمعا معاً صوت الأب وهو يقول ضاحكاً:

ـ من هذا الذي يحب هدى غيري؟.

ضحكت الأم وهدى ثم أسرعت لتلقي بنفسها بين أحضان أبيها وهي تقول له:

ـ أبي .. لقد نجحت.

هتف الأب بسعادة حقيقية:

ـ مبروك.. مبروك يا هدى.. حقاً إنه أسعد خبر سمعته منذ فترة طويلة.. ولكن لدي خبر أسعد من هذا..

صرخت الأم وهدى في وقت واحد:

ـ ما هو؟

ضحك الأب وهو يقول:

ـ هدية لهدى بمناسبة نجاحها.. إنه عريس..

وجمت هدى.. واشتدت ضربات قلبها.. منذ زواج عماد ابن الجيران وهي تكره فكرة الزواج ككل..

أفاقت على صوت والدها:

ـ ما رأيك يا هدى.. هل أكمل كلامي أم أؤجله فيما بعد؟

تعجلته الأم قائلة:

ـ هيا أخبرنا بكل ما عندك الآن.. من هو هذا العريس؟

نظر الأب إلى هدى ثم وجه كلامه إلى والدتها قائلاً:

ـ إنه ابن أخي سالم.. طبعاً أنت تعرفينه يا هدى..

أطرقت هدى برأسها صامتة.. وأفكارها تندلع كنيران حارقة من كل جزء في جسمها.. والآلاف.. آلاف من الأسئلة الحائرة الصامتة تخترق رأسها المعذب..

سالم.. لماذا اختارها هي بالذات؟ والعائلة تعج بعشرات الفتيات الجميلات غيرها.. وكلهن لم يتزوجن بعد.. وبعضهن أجمل منها بكثير.. بل إن واحدة فيهن تفوقها جمالاً وثقافة وتعليماً.. لماذا هي بالذات؟

التفتت لترى عيني أبيها تحدقان بها.. فاحمر وجهها بشدة، وأسرعت تلوذ بحجرتها ودوامة من الأفكار الدامية تعصف برأسها وحاولت أن تتذكره.. سالم بوجهه الوسيم وشاربه الخفيف وعينيه العسليتين ورقته المتناهية.. ترى ما أعجبه بها؟ ما الذي شده إليها. هل هي الشفقة بها كفتاة حطمتها الأقدار وطلقت وهي في عنفوان شبابها فخرجت من تجربة أماً لطفل معاق؟ أرهبتها الفكرة.. فحاولت أن تطردها من رأسها.. لتغرق في الدوامة نفسها من جديد.. وما الذي يرغبه بها وهو الشاب الوسيم.. الذي تتمناه كل فتاة لجاذبيته وأخلاقه ودماثته ووظيفته المرموقة.. إنه يستطيع أن يتزوج من أي فتاة تفضلها في كل شيء.. حتى في الظروف؟ فلماذا؟ لماذا يربط نفسه بها؟ هل هو الحب؟؟ أحست بقلبها يدق بقوة.. خلت معها بأن كل من في البيت يسمعون دقاته ولكن لا.. ليس هو الحب؟ فهو لم يعرفها إلا لماماً.. فكيف يحبها؟..

* * *

استقبلت هدى صديقتها فاطمة بفرحة كبرى.. وضحكت كثيراً على بطن فاطمة الكبير فقالت لها مازحة:

ـ أنا متأكدة بأن ما في بطنك ليس طفلاً.. صدقيني هو إما رجل أو امرأة.. وسترين..

لكزتها فاطمة بكوعها ضاحكة.. ثم انطلقت الإثنتان تتحدثان وهما تضحكان حتى دخلت أم هدى وسلمت على فاطمة وهي تقول لها:

- ما شاء اللّه يا فاطمة.. إن بطنك كبير جداً.. وشكله المرتفع يوحي بأنك ستنجبين ولداً..

ضحكت فاطمة وهي تقول:

- يا رب.. إنني أتمنى يا خالتي أن أنجب ولداً.. لأن زوجي يريد ذلك..

ابتسمت أم هدى وهي تدعو لها أن يحقق اللّه رغبتها.. ثم استأذنت لتحضر الشاي.. وما أن خرجت الأم حتى همست هدى لفاطمة:

- لقد حدثت اليوم مفاجأة.. احزري ما هي؟

نظرت فاطمة إليها بغباء وهي تقول:

- ماذا؟ أخبريني..

هزت هدى رأسها وهي تقول:

- لا.. لن أخبرك قلت لك إحزري..

طرقت فاطمة تفكر.. ثم قطبت جبينها وهتفت:

- لم أستطع التكهن بهذا الأمر.. أرجوك يا هدى ارحمي بطني المتضخم هذا وأخبريني ماذا حدث..

تنهدت هدى قبل أن تقول:

- لقد تقدم ابن عمي سالم لخطبتي.. اليوم

لمعت الفرحة في عيني فاطمة ثم قالت:

- حقاً.. هل هو سالم الذي حدثتني عنه وقت الأزمة.. أومأت هدى برأسها بنعم دون أن تجيب..

همست فاطمة بلهفة:

ـ وما رأيك يا هدى؟

ـ صدقيني يا فاطمة.. إنني لا أدري.. لا أدري هل أرفض الزواج منه وربما أندم بعد ذلك.. أو أوافق على الزواج منه وربما أندم أيضاً.. إنني حائرة..

ـ ولماذا الحيرة يا هدى؟. اسألي نفسك سؤالاً بسيطاً.. هل في قلبك متسع لحبه أم لا؟ وعلى ضوء إجابتك أعلني قبولك أو رفضك..

وما إن فتحت هدى فمها لتتكلم حتى دخلت والدتها تحمل جابر وخلفها الخادمة تحمل صينية الشاي.

تناولت فاطمة جابر من أم هدى.. وابتسمت قائلة:

ـ ما شاء اللَّه لقد كبر يا هدى.. وأصبح رجلاً وسيماً..

نظرت إليها هدى بيأس وهي تقول:

ـ شكراً يا فاطمة على المجاملة.. إنه حتى لا يستطيع الجلوس..

نظرت إليها فاطمة بعتاب ثم قالت:

ـ حرام عليك يا هدى اليأس بهذه الطريقة.. إن اللَّه قادر على كل شيء.. ولا تدرين ربما يمشي غداً، فقط لا تيأسي من رحمة اللَّه.

تنهدت أم هدى وهي تقول:

ـ اللَّه كريم.. ولن ينسانا.. أتدرين يا فاطمة.. لقد بدأ جابر يحاول الجلوس قليلاً بدون مساعدة..

نظرت فاطمة إلى هدى وهي تقول:

ـ أرأيت يا هدى.. اليوم يجلس وغداً، يمشي بإذن اللَّه.. فقط أنبذي اليأس..

ثم أردفت وهي تغمز بعينيها لهدى:

ـ واستقبلي السعادة..

ابتسمت هدى رغماً عنها.. ثم سألت فاطمة:

ـ لماذا لم تحضري معك أم زوجك لتتعشوا معنا؟.

تأففت فاطمة وهي تقول:

ـ أعوذ باللّه.. إنني لم أصدق بأنني تخلصت منها ساعة حتى تريدينني أن أحضرها معي..

ضحكوا جميعاً بمرح وهدى تفكر بمستقبلها وكيف يكون.. وبدا إحساس بالحذر يسري في جسدها وهي تفكر بسالم.. وما يدريها.. إن سالم شاب ممتاز.. وربما تجد على يديه السعادة التي لم تذق لها طعماً مع زوجها الأول..

ستوافق.. ستوافق على الزواج من سالم.. وستدعو اللّه بأن يهبها السعادة التي حرمت منها والحياة الهنيئة التي تمنتها طوال حياتها..

****

في ليلة زفافها إلى سالم.. الليلة التي ستغادر بها أرض الكويت إلى بلدها الثاني السعودية الشقيقة، وقفت تودع أمها والدموع تتلألأ في عينيها.. ثم تحولت الدموع إلى شهقات باكية عندما رأت جابر.. فضمته إلى صدرها والدموع تسيل على وجنتيها لتغرق به وجه جابر وشعره وثيابه.. انتزعته أمها منها.. وفوجئت هدى بيد تمسك بيدها.. التفتت لتجد زوجها سالم يمسك بيدها برقة، وعيناه تطوفان حول وجهها بحنان بالغ..

مسحت دموعها بيدها.. وكتمت شهقاتها داخلها.. ثم ودعت والدها وإخوانها.. فمال عليها يوسف ضاحكاً:

ـ هدى.. لا تنسينا هناك.. أخاف أن ينسيك زوجك البطل أهلك.. عموماً أريد أن تخطبي لي فتاة من الرياض لأكون بجانبك دائماً..

ابتسمت هدى وسط دموعها ثم ركبت سيارة زوجها ومضت بهم السيارة تنهب الطريق نحو المطار.. والصمت يغرقها بظلامه..

حتى تمت جميع إجراءات المغادرة.. وجلست إلى جوار زوجها في الطائرة.. فهمس سالم في أذنها:

ـ هدى.. لقد أحببتك دائماً.. أنت حبي الوحيد..

ارتجفت هدى وسرت رعشة في جسدها رغماً عنها.. ثم همست:

ـ كنت أشعر دائماً بود عميق تجاهك..

ابتسم سالم كاشفاً عن أسنانه البيضاء ثم قال لها بصوت خافت:

ـ هل أحببتني أيضاً كما أحببتك؟.

هزت هدى كتفيها دون أن تجيب.. فضحك بسعادة وهو يتناول يدها ليقبلها..

* * *

تمر الأيام السعيدة بسرعة كلمح البصر.. وهدى تعيش السعادة كلها إلى جوار سالم، ولكن بُعد ابنها جابر يؤرقها وينغص عليها حياتها..

دخل سالم بهدوء شديد إلى بيته.. يحمل بين يديه هدية جميلة لهدى.. لقد أتى قبل موعد إيابه بساعة كاملة يريد أن يفاجئها بحبه وبهديته..

أخذ يبحث عنها في أرجاء البيت.. في المطبخ.. في الحمام.. وما أن وضع يده على مقبض حجرة النوم حتى سمعها تتحدث.. إنها تتحدث في الهاتف.. ورغماً عنه توقف يتنصت.. إنه دائماً يريد أن يتأكد من حبها وهيامها به..

ـ وماذا قال لك الطبيب أيضاً؟..

ـ الحمد للّه يا أمي.. فما دام يستطيع الجلوس فبالتأكيد سيمشي عاجلاً أم آجلاً..

ـ أبداً يا أمي.. إنني سعيدة مع سالم.. ولكنني أفكر في جابر ليل نهار.. ترى هل هو جائع.. هل هو نائم.. هل يلعب.. هل يشتاق لي؟.

ـ كلا.. أعرف يا أمي بأنك ترعينه حق الرعاية، ولكنني أشتاق إليه كثيراً..

ـ أحقاً يا أمي أستطيع أن آخذه ليعيش معي؟.

ـ نعم فقد مضى على زواجي أربعة أشهر ويمكنني أن آخذه الآن.. سأخبر سالم بالأمر..

ـ وداعاً يا أمي.. أوصلي سلامي إلى أبي وأخواني..

تجهم وجه سالم وتغيرت ملامحه.. هل هي الغيرة؟ هل هو حب التملك؟.

تخاذلت أطرافه.. فمشى الهوينا حتى صالة الجلوس، وألقى بجسده على إحدى الأرائك دون أن يلقى بالاً للهدية الثمينة التي سقطت على الأرض..

ما أن رأته هدى حتى صرخت فرحاً.. وما لبثت أن انقبضت أساريرها وهي ترنو إليه بلهفة وجزع وسألته:

ـ سالم.. ما بك.. هل أنت مريض؟..

أشاح بوجهه ولم ينطق.. اقتربت منه أكثر وهي تسأله:

ـ لقد أخفتني ماذا حدث لك يا حبيبي؟.

رمقها ساخراً وهو يقول:

ـ هل حقاً أنا حبيبك الوحيد أم أن هناك شخصاً آخر يزاحمني في قلبك الصغير؟.

ضحكت بارتباك وهي تقول:

ـ طبعاً أنت.. أنت حبي الوحيد..

مال عليها هامساً:

ـ وجابر..

ابتسمت بحياء وقد أدركت بأنه سمع مكالمتها الهاتفية مع والدتها.. فقالت:

- جابر شيء .. وأنت شيء آخر.. ثم أردفت بقلق:

- لماذا تتنصت على مكالمتي؟

تعكرت ملامح وجهه وهو يقول:

- أنا لم أتنصت عليها فقط كنت أريد أن أفاجئك بعودتي باكراً.. فوجدتك مشغولة بمكالمتك مع أمك ثم أشار إلى الهدية الملقاة على الأرض:

- وهذه هدية أردت مفاجأتك بها..

أخذت هدى الهدية من على الأرض.. وقد أنستها الفرحة بالهدية غضب زوجها منها.. فتحت الهدية بعجل ودون روية ثم صرخت:

- حقيبة شانيل.. يا اللّه.. يا لها من حقيبة جميلة.. منذ زمن طويل وأنا أتمنى مثل هذه الحقيبة.. وأقبلت إليه تشكره، ولكنها وجدته ينظر إلى السقف بلا مبالاة..

هتفت:

- سالم.. لا أدري كيف أشكرك على هذه الهدية الرائعة.. ولكن ما بك؟ هل هناك ما يقلقك؟

قال بصوت خافت:

- أبداً لا شيء.. هل الغداء جاهز؟..

قطبت هدى ما بين حاجبيها.. ونظرت إليه نظرات عاتبة وهي تقول:

- سالم أنت لست طبيعياً أبداً.. ترى هل أغضبتك مكالمتي مع أمي..

وكأن هذه الجملة مست وتيرة في نفسه.. فقال بغضب:

- قلت لك لا شيء.. لم يحدث لي شيء.. إذا كان لديك غداء فأحضريه.. وإذا لم يوجد فسأذهب لأتغدى في أي مطعم..

نهضت من أمامه مهرولة إلى المطبخ والدموع تملأ وجهها الجميل.. لماذا هو يعاملها هكذا وكأنها اقترفت جريمة منكرة.. إنها حتى في مكالمتها لأمها لم تقل كلمة تغضبه أبداً.. إنها لم تخبر أمها بمعاملة والدة زوجها السيئة لها.. حتى أمل ومنيرة شقيقات زوجها.. ومن كن صديقات لها أيام الأزمة.. أيام غربتها عن وطنها.. تحولن الآن إلى عدوات لها.. بل إن أمل دائمة التهكم منها ومن زوجها.. إنها لا تنسى ما حدث في زيارتها الأخيرة لهم.. فقد قالت أم زوجها بسخرية واضحة:

ـ لماذا لم تحملي حتى الآن من سالم.. أم أنك تنوين إنجاب طفل معاق آخر؟.

جرحتها الكلمة في الصميم.. كبتت دموعها لتسيل صديداً من الأحزان داخل قلبها..

وزوجها سالم لم يتحرك.. لم يحاول إسكات أمه بأية كلمة.. حتى عندما قالت أمل:

ـ سالم .. لقد رأيت البارحة في زواج صديقتي أسماء.. بنت خالتها.. إنها أجمل فتاة رأيتها في حياتي..

وضحك سالم بارتباك وهو يقول:

ـ أجمل من هدى؟..

فأجابت أخته أمل:

ـ المهم أنها ليست مطلقة سابقاً..

أشاحت هدى بوجهها ألماً.. وطفرت دمعة على خدها مسحتها بسرعة.. فلم تشأ أن تشعر زوجها بأنها متضايقة من أهله..

ولم تخبر أمها أيضاً.. فإن مكالمتها لأمها اليوم كانت عادية.. فقط طغى شوقها لابنها على كل شيء في حياتها.. حتى حبها لزوجها..

ربما هو غاضب لأنها اتفقت مع والدتها على إحضار جابر دون إستشارته هو أولاً.. ربما هو على حق وهي المخطئة.. إنها لم تر منه طوال أشهر زواجها إلا كل خير.. وكل حب..

أسرعت تعد طعام الغداء.. وقد عقدت العزم على مصارحة زوجها بما اتفقت عليه مع والدتها وإستشارته في الأمر..

جلس سالم على مائدة الطعام واجماً.. صامتاً.. وأخذ يتناول طعامه دون حتى أن ينظر إليها.. أو يتفوه بأية كلمة..

ثم أنهى طعامه سريعاً.. فنهض ليغسل يديه.. لحقت به هدى.. جففت يديه جيداً بالفوطة وهي تقول بحنان:

- سالم.. أما زلت غاضباً مني؟..

أشاح بوجهه صامتاً.. ثم توجه إلى حجرة النوم وألقى بنفسه على السرير..

اقتربت منه بدلال وهي تقول:

- سالم.. أنت أغلى إنسان عندي في الوجود.. أنت حبي الأول والأخير..

نظر إليها وقد لانت تعابير وجهه ثم همس:

- ولكنك لا تحسبين لي أي حساب..

ابتسمت في وجهه برقة وهي تقول:

- كيف لا أحسب لك حساباً وأنت رجل البيت.. وكل شيء بيدك.. إذا كنت تقصد مكالمتي مع أمي فسأفسرها لك بكل وضوح وبساطة:

كنت مشتاقة لجابر كثيراً، فاتفقت مع أمي على أن أحضره ليعيش معي.. بعد إذنك طبعاً..

نظر إليها وعلى وجهه سيماء تفكير عميق.. ثم جذبها إليه ضاحكاً.. وهو يقول:

- لنرجىء كل شيء إلى وقت آخر..

في الكويت.. في بيت والد هدى.. كانت في البيت حركة غير عادية.. الجميع يهرول في كل مكان.. الأم والخادمة ترتبان كل شيء بدقة.. الأب يسرع إلى المطبخ كل فينة وأخرى ليتأكد من أن كل شيء جاهز.. الأولاد متأهبون.. وكل منهم قد لبس أبهى حلة لديه.. جابر الصغير يتقلب على الأرض بكل سعادة ومرح..

تنهدت الأم قائلة بقلق لا تخفيه:

- أبو يوسف.. لقد تأخرا.. ألم يخبرك سالم البارحة بأن موعد وصولهما هو الواحدة ظهراً؟

ضحك الأب بسخرية وهو يقول:

- إهدئي يا أم يوسف.. إنهم مسافران بالسيارة وليس بالطائرة.. والسيارة ليس لها مواعيد.. ثم إن سالم لم يؤكد لي الموعد وإنما قال ربما نصل في الواحدة أو الواحدة والنصف.. ثم إنني أخبرتك مراراً أن..

وقبل أن يكمل كلامه دوى رنين جرس الباب.. فأسرع الأولاد راكضين ليفتحوه..

دخل سالم.. ثم هدى.. وتعانق الجميع فرحاً.. ثم ركضت هدى حيث يرقد جابر وضمته بين ذراعيها ودموعها تسيل على وجنتيها والطفل يهذي بكلمات متقطعة:

- ماما.. ماما هدى.. أحبك يا ماما..

انتزعه سالم من بين أحضانها يسلم عليه هو الآخر.. ولكن الطفل بكى بقوة وهو يصرخ:

- لا.. أريد ماما.. أريد ماما..

فأخذته هدى من زوجها.. ولم تلتفت لتعابير الحنق والسخط التي ملأت وجه سالم وأخذت تقبل الطفل في كل مكان من وجهه.. وهو يضحك سعيداً حتى أقبل يوسف عليها وهو يقول بخجل:

- هدى.. أريد أن أخبرك شيئاً.

التفتت إليه هدى وكأنها تفيق من غيبوبة.. وقبل أن ترد عليه..

قالت الأم ضاحكة:

- ألم تعرفي يا هدى.. لقد خطب يوسف.. خطب بنت جيراننا تهاني.. ألا تذكرينها أخت عماد؟.

غمرت هدى الدهشة.. ثم قالت بفرح:

- نعم.. نعم أذكرها.. ولكنها صغيرة جداً.. أعتقد بأنها الآن في السابعة عشرة من عمرها.. وما أخبار نورة أختها الكبرى.. أعتقد بأن لديها طفلين الآن.. أليس كذلك يا أمي؟

أجابت الأم:

- بلى إن لديها طفلين وهي حامل الآن.. وعماد أنجبت زوجته طفلاً الأسبوع الماضي.. ألا.. تذهبين معي غداً لزيارتهم يا هدى؟ فرصة لترين تهاني..

ابتسمت هدى وهي تنظر إلى يوسف قائلة:

- يا لك من ولد خطير يا يوسف.. إنني أعتقد أن وراء هذه الخطبة قصة حب رائعة..

ضحك يوسف بحياء وهو يلقي يده على كتف سالم:

- مثل قصتك أنت وسالم..

اضطربت هدى.. أحست والدتها بارتباكها.. فقالت بمرح:

- هيا يا هدى لنعد الغداء.. بالتأكيد أنت وسالم في أشد حالات الجوع..

على المائدة الكبيرة اتضح كرم والد هدى جلياً..

يتوسط المائدة صحن كبير من الأرز يرقد فوقه خروف كامل محشي.. وتتنوع السلطات والمقبلات بكرم ظاهر..

التف الجميع حول المائدة العامرة يأكلون بشهية، ثم استأذن سالم ليرتاح قليلاً بعد الغداء.. وأرشدته هدى إلى حجرتها ثم عادت لتنضم إلى أسرتها من جديد..

ضمت جابر وأجلسته في حضنها.. فسألتها والدتها:

ـ لقد مضى على زواجك يا هدى ستة شهور.. ولم أسمع عن حملك أبداً.. فلماذا يا ابنتي؟

ابتسمت هدى بحزن وهي ترد:

ـ إنني يا أمي أتناول حبوب منع الحمل بالإتفاق مع سالم.. على الأقل لمدة سنة من زواجنا لنختبر سعادتنا مع بعضنا ومدى استقرارنا..

همست الأم:

ـ كلا يا هدى.. أنت مخطئة.. فالإستقرار لا يأتي إلا بمجيء الأطفال.. والحب لا ينمو إلا بهم فلا تتأخري يا ابنتي حتى تربطي زوجك بك أكثر.. وتحببيه بك أكثر..

ضحكت هدى ساخرة وهي تقول:

ـ إن الأطفال لا يربطون الرجل بزوجته يا أمي إذا لم يكن بينهما حب ومودة.. فانظري إلى صديقتي فاطمة يا أمي، إن زوجها لم يتغير حتى بعد إنجابها منه طفلة.. بل ازداد سوءاً على سوء.. وغرق في المخدرات حتى أذنيه..

أطرقت الأم برأسها في حزن.. ثم قالت وهي تفرك أصابع يديها:

ـ ليست كل الحالات مشابهة لحالة فاطمة.. فزوج فاطمة منذ البداية كان يلتهم المخدرات.. أما سالم يا ابنتي فإنه إنسان ممتاز.. وشاب رزين.. تفخر أي فتاة بأن يكون زوجاً لها وأباً لأولادها..

هتفت هدى بتأفف:

ـ دعينا من هذه السيرة الآن.. وأخبريني هل أبي موافق على أن آخذ جابر ليعيش معي في السعودية؟.

ردت الأم على هدى:

ـ إنه لم يرد لا إيجاباً ولا سلباً فقط قال لي بأنه إذا كان سالم موافق على هذا فلا مانع عنده..

ابتسمت هدى وكأنها تذكرت شيئاً ثم قالت:

ـ بالطبع يا أمي.. إن سالم موافق.. إن سالم يفرح لفرحي.. ويحاول أن يحقق لي كل شيء يسعدني..

نظرت الأم إلى الأرض وهي تهمس:

ـ وفقك اللّه يا ابنتي فقد قاسيت المر في حياتك السابقة.. ولكن اللّه رحيم يا ابنتي.. فوفقك بهذا الزوج الطيب.. ثم أردفت:

ـ على فكرة.. ما أخبار زوجة عمك وبناتها وأولادها؟

هزت هدى كتفيها وهي تقول:

ـ لا بأس يا أمي.. إنهم بخير..

ثم نهضت واقفة وهي تقول:

ـ أمي خذي جابر.. سأذهب لأهاتف صديقتي فاطمة.. علها تستطيع أن تزورني الليلة أو غداً، لأننا كما تعلمين سنغادر الكويت بعد غد، فأنا لا أستطيع أن أدع جامعتي وكذلك سالم لا يستطيع أن يتغيب عن عمله..

هتفت الأم:

ـ ياه.. ألم أخبرك.. إن فاطمة ليست في الكويت.. فقد سافرت منذ أسبوع مع زوجها إلى لندن وتركت ابنتها عند والدتها.. وأخبرتني بأنها لن تغيب كثيراً فقط عشرة أيام..

ضربت هدى رأسها بقوة وهي تقول:

ـ آه.. لقد تذكرت.. لقد أخبرتني بذلك أثناء مكالمتها لي الأسبوع الماضي.. إذن سأذهب لأحادث والدتها..

* * *

جلست هدى مرتبكة وإلى جوارها والدتها في بيت جارهم "أبو عماد"..

ضحكت هدى لتخفي ارتباكها وهي تقول:

ـ أم عماد.. أين العروس.. أين تهاني؟ إنني لم أرها منذ دخلت..

بادلتها أم عماد بضحكة كبيرة ثم نهضت واقفة وهي تقول:

ـ إنها خجلى.. ولكن ثواني معدودة وسأدعوها لتراكم..

بعد دقائق معدودة.. دخلت تهاني الشقيقة الصغرى لعماد..

فتاة في السابعة عشرة من عمرها.. ممشوقة القامة.. مليحة الوجه.. تحمل صينية كبيرة صفت عليها أكواب المرطبات.. قدمتها إليهم ووجهها محمرّ من شدة الخجل..

ثم جلست إلى جوار هدى وهي لا تكاد ترفع عينيها إلى وجهها.. مما حدا بهدى لأن تقول ضاحكة:

ـ إنك يا تهاني غارقة في الخجل.. لماذا لم أعطك القليل من جرأتي؟

ضحكت أم يوسف وهي تسأل تهاني:

ـ ما أخبارك في الدراسة يا تهاني؟ إن يوسف يصر على أن تكوني الأولى دائماً..

ثم أردفت تسأل أم عماد:

ـ أم عماد.. كيف حال زوجة عماد وطفلتها الصغيرة؟.

قالت أم عماد:

ـ إنها بخير.. رغم أنها أنجبت طفلتها بعملية قيصرية.. ولكنها بصحة جيدة هي وطفلتها.. وعماد كل يوم يذهب إليهما.. إنه متعلق جداً بطفلته.. العقبى ليوسف إن شاء اللّه..

تمتمت أم يوسف هامسة:

ـ إن شاء اللّه قريباً..

تذكرت هدى جابر.. طفلها الصغير.. وحلقت بها أفكارها بعيداً في دنيا الخيال.. ترى هل سيحبه سالم كما لو كان أباه.. أم أنه سيغار منه كما يفعل دائماً.. إنها تذكر المشادة التي حدثت بينها وبين سالم كل ليلة إذا أخبرته بأنها مشتاقة لجابر طفلها.. لقد حاولت كثيراً حتى اقتنع سالم بأن يحضره ليعيش معها.. أوحت له بأنها لن تشتاق لطفلها وهو قريب منها.. وكلما بعد عنها كلما ازدادات شوقاً له.. حتى فوجئت بسالم يخبرها قبل أيام بأنه قرر أن يسافر وإياها ليحضرا جابر ليعيش بينهما.. تذكرت فرحتها بذلك وإن لم تسأل نفسها لماذا وافق زوجها سريعاً على هذا الأمر.. إنها سعيدة وكفى..

أفاقت على صوت والدتها:

ـ هدى.. أم عماد تسألك..

ارتبكت هدى واحمر وجهها وهي تسأل:

ـ ماذا.. ماذا قلت يا خالتي؟ آسفة لم أستمع لك..

ابتسمت أم عماد بإشفاق وهي تقول:

ـ كنت أسألك متى ستغادروننا إن شاء اللّه إلى السعودية؟

تكلمت هدى بصوت خافت:

ـ غداً.. غداً صباحاً يا خالتي..

* * *

في مبنى كلية العلوم قسم نبات من جامعة الملك سعود بالرياض.. وقفت هدى في المختبر مع بقية زميلاتها الطالبات، ترقب شريحة نوع من أنواع النباتات عبر المجهر.. أحست بالصداع الشديد يكاد يحطم رأسها وزغللة شديدة في عينيها.. رفعت عينيها من المجهر بسرعة وأسندت يدها إلى رأسها وهي تتأوه..

همست لها زميلتها عائشة بقلق:

ـ هدى.. ما بك؟

تنهدت هدى بقوة وهي تقول بصوت خافت:

- لا شيء.. أشعر بصداع بسيط فقط لا غير..

وفجأة انحنت زميلتها عائشة نحو المجهر هامسة:

- المعيدة قادمة.. تظاهري بأنك تشاهدين الشريحة..

ولكن هدى لم تستطع.. فالصداع الشديد يمنعها حتى من الكلام.. حتى وقفت المعيدة أمام هدى وهي تقول:

- هدى.. هل انتهيت من مشاهدة الشريحة.. لمَ لا تسجلين ملاحظاتك حول النبتة كما تفعل زميلاتك؟

تكلمت هدى بصعوبة..

- إني آسفة.. ولكنني.. متعبة يا أستاذة..

نظرت إليها المعيدة بقلق وهي تسأل:

- ما بك يا هدى؟

أمسكت هدى برأسها ثم همست:

- أشعر بصداع شديد لا أستطيع معه مواصلة الدرس..

قالت لها المعيدة:

- حسناً يا هدى.. يمكن أن تخرجي من المحاضرة لترتاحي.. وإذا شئت توجهي إلى الطبيبة لترى ما بك.

شكرت هدى أستاذتها ثم انسلت خارجة من المبنى..

صافحها الهواء البارد في الخارج، فاستردت بعض هدوئها.. ثم أسرعت تخترق جموع الطالبات ودخلت مبنى العيادة..

ولكن ما إن رأت الصف الطويل من الطالبات بانتظار الطبيبة حتى غيرت رأيها بسرعة.. وتوجهت إلى مبنى رقم (٢٠) حيث الكافتريا التي تقع في الطابق الثاني من المبنى..

جلبت لنفسها كوباً من الشاي الساخن، وجلست في ركن منعزل تتأمل الطالبات في غدوهن ورواحهن.. أحست بالصداع

يعاودها من جديد.. شدت على رأسها بقوة بقبضتي يديها.. وتذكرت أنها لم تنم البارحة.. لم تنم على الإطلاق..وهذا هو سبب صداعها الشديد..

ليست الليلة السابقة هي الليلة الوحيدة التي لم تنم فيها، وإنما ليالي كثيرة مرت من دون نوم.. لقد تغير سالم كثيراً منذ أن عادت من الكويت مصطحبة صغيرها جابر.. إنه يغار من الطفل بل إنه يكرهه.. ويمقت وجوده معها.. إنها تذكر جيداً اختلافهما البارحة..

فبعد أن عادت ومعها سالم والطفل من زيارة لأهله، وضعت جابر في سريره فقد كان نائماً طوال الطريق.. صرخ سالم في وجهها فجأة:

ـ لماذا تصرين دائماً على اصطحاب جابر معنا في كل مكان نذهب إليه.. حتى ولو ذهبنا إلى مستشفى لماذا أنت متعلقة به إلى هذه الدرجة؟

قابلت صراخه بهدوء شديد وهي تقول:

ـ وأين أضعه إذا لم آخذه معي؟

علا صراخه وهو يقول:

ـ كما تضعينه كل يوم عند جارتك أم أحمد عند ذهابك للجامعة..

بدأ صدرها يضيق وهي ترد عليه:

ـ أم أحمد ليست مكلفة به لأضعه عندها دائماً.. يكفيها أولادها.. جميل جداً منها أن تتحمله لمدة نصف يوم..

صرخ أكثر:

ـ إذا كنت تعرفين جيداً بأن الناس لا يحتملون ابنك.. لماذا تحضرينه إلى هنا.. لماذا لا تعيدينه إلى أمك؟.

أرخت نظراتها ثم هتفت بعتاب:

ـ لقد وافقت أنت على أن نحضره معنا.. ولم يمض على إقامته معنا سوى شهر ونصف الشهر.. فماذا حدث؟.

تنهد بقوة .. ثم تكلم من بين أسنانه:

ـ كنت مغفلاً.. ولن أسمح باستمرار الوضع هكذا.. صراخ في الليل.. وعذاب بالنهار.. فمتى أرتاح في بيتي.. متى.. متى؟

ترددت قبل أن تقول:

ـ كلا.. لقد كنت سعيداً في البداية.. ولكن.. أعتقد أن أمك.. هي.. التي حرضتك عليّ..

نظر إليها نظرة نارية.. ثم صفعها بقوة على صدغها.. ومضى غير عابىء بالدموع التي انبثقت من عينيها الجميلتين.. ولم يلتفت لنظرات الألم والندم التي طلت من عينيها.. وقبل أن يغلق على نفسه باب حجرة النوم.. قال لها بسخرية:

ـ أمك.. أمك.. دائماً تدخلين أمي في كل شئوننا.. وكأنني طفل عندك.. لا رأي لي ولا تفكير..

انقبض قلبها بشدة.. وتجربتها السابقة تلوح في وجهها كوجه بغيض.. أغمضت عينيها بشدة.. ومضت إلى حجرة طفلها جابر.. نظرت إليه من خلال دموعها.. إنه ملاك صغير.. مسكين هذا الطفل عاش طوال حياته مرفوضاً حتى من أقرب الناس إليه.. حتى أبوه لا يريد أن يعرف عنه شيئاً.. ولا يريد أن يراه..

وأمضت ليلتها هكذا ساهرة لا يقرب النوم عينيها.. حتى أشرق الصباح.. صحا زوجها سالم وتناول إفطاره وحده.. وحملت هدى طفلها لتوصله إلى جارتها أم أحمد.. ثم لبست ملابسها بسرعة وأوصلها سالم إلى جامعتها دون أن يتبادلا كلمة واحدة في الطريق..

همست لنفسها والصداع يكاد يفتت رأسها: " لا بد أن سالم الآن غاضب.. ولكن لن أصالحه كالعادة سأتجاهله حتى يفهم".

نظرت إلى ساعتها بلمحة عابرة.. فبهتت لجلوسها كل هذا الوقت في الكافتريا وأسرعت تلحق بمحاضرتها التي بدأت منذ ربع ساعة..

الهاتف يرن في بيت هدى.. وهي جالسة تقرأ في كتاب.. وإلى جوارها يرقد جابر يلعب بلعبة في يده.. امتدت يد هدى ورفعت سماعة الهاتف لتسمع صوت صديقتها فاطمة يأتيها مازحاً:

ـ أيتها الفتاة الشقية.. أهكذا تأتين للكويت سريعاً وتعودين دون أن أراك..

ضحكت هدى ببراءة وهي تجيبها:

ـ كيف حالك يا فاطمة.. وكيف حال ابنتك رنا؟.

ـ الحمد للّه بخير.. لقد تأخرنا في لندن، وبدلاً من أن نمكث أسبوعاً جلسنا شهرين.. وقد تطوع أخي بإرسال ابنتي مع مربيتها.. ولم نعد إلا منذ ثلاثة أيام..

ـ ما أخبار لندن وأخبار زوجك؟.

ـ الحمد للّه لم يتغير شيء.. زوجي هو نفسه لم يتغير.. وأنا تأقلمت على هذا الوضع..

هدى أشعر بأن صوتك متغير.. هل أنت مريضة؟.

ـ كلا.. كلا البتة..

ـ إذن.. ماذا بك؟ إنني أعرفك يا هدى.. فلا بد أنك حزينة..

لم تتمالك هدى نفسها فأجهشت بالبكاء.. وصوت فاطمة يأتيها من بعيد:

ـ هدى.. ماذا بك يا حبيبتي.. ردي عليّ؟

وبعد لحظات استجمعت هدى شتات نفسها وهمست بصوت باكٍ:

ـ لا أدري يا فاطمة.. ولكن.. أشعر بأن حياتي سلسلة من الأحزان.. سلسلة لا تنتهي.. كلما أحسست بأنني قد لمست السعادة بيدي أجدها قد هربت مني..

تكلمت فاطمة بصوت رقيق:

ـ ولكن.. أعرف بأن سالم يحبك جداً.. فماذا حدث؟

تنهدت هدى بقوة وكأنها تخرج الزفرات الحارة المتجمعة في صدرها.. ثم قالت بيأس:

ـ كان يحبني.. والآن بعد أن أحضرت جابر ليعيش معي تحولت حياتي إلى جحيم لا يطاق.. حرب شديدة مع أهل سالم.. وغيرة لا حدود لها منه.. إني أتعذب يا فاطمة.. أتعذب.. وأجهشت من جديد في البكاء.. ولم ترد فاطمة.. بقيت صامتة تستمع إلى بكاء صديقتها المرير... حتى قالت بصوت متهدج:

ـ أتصدقين بأن سالم الآن لا يطيق أن يراني بعد أن كان يهرب من العمل ليتزود بنظرة مني؟ إنني حائرة.. هل أعيد الطفل لأمي.. ولكن ما ذنبه.. وما ذنبي.. وما ذنب سالم أيضاً؟

بعد تردد كبير همست فاطمة:

ـ إنني أرى أن تعيدي الطفل لأمك.. فحياتك الزوجية أولى.. وجابر يرتاح مع أمك أكثر منك، على الأقل هي لا تتركه كل صباح وتذهب إلى الجامعة..

تساءلت هدى بمرارة:

ـ ولكن يا فاطمة.. أنت أم وتعرفين.. إنني أشتاق إليه كثيراً.. وأتعذب أيضاً لبعده عني..

قالت فاطمة بإصرار:

ـ ولكن حياتك الزوجية هي الأهم.. وجابر يمكنك أن تريه في الشهر مرة أو مرتين..

فكري يا هدى بالأمر وضعي في إعتبارك أن سالم يحبك.. يحبك جداً..

همست هدى بخجل:

ـ شكراً يا فاطمة لقد أرحتني كثيراً..

ثم انتبهت فجأة إلى الساعة وصرخت:

ـ ياه.. أتدرين يا فاطمة بأننا قضينا حوالي الساعة نتحدث.. سيصاب زوجك بصدمة عندما يرى فاتورة الهاتف..

ضحكت فاطمة وهي تقول:

ـ لا تخافي.. إذا أتتني فاتورة الهاتف سأحولها عليك، فأنت السبب في طول المكالمة..

وما أن أغلقت هدى سماعة الهاتف.. حتى حملت جابر الذي نام من طول الإنتظار، ووضعته في سريره بهدوء ثم أسرعت إلى حجرة النوم.. ولبست أجمل قميص لديها ووقفت أمام المرآة تتأمل وجهها وتضع عليه بعض المساحيق.. وقبل أن تخرج من الحجرة وضعت قليلاً من العطر وراء أذنيها وعلى عنقها وفوق صدرها.. ثم استلقت على أريكة كبيرة في الصالة تنتظر زوجها سالم.. ولكن.. مر الوقت وسالم لم يعد.. والساعات تمر بطيئة.. حتى غلبها النوم أخيراً..

وفي الساعة الثالثة صباحاً.. أفاقت على صوت مفتاح يدور بباب البيت.. فتحت عينيها ببطء، فرأت زوجها سالم يدخل بهدوء بدون حتى أن ينظر إليها.. أسرع مارقاً كالسهم نحو حجرة النوم وقفت تساوي شعرها وهي تسأل نفسها بذهول:

ـ كيف يعود سالم إلى البيت في مثل هذا الوقت.. في الثالثة صباحاً.. ليس هذا من عادته أبداً.. ثم نهضت متثاقلة لتلحق بزوجها.. وما أن دخلت الحجرة حتى فوجئت به غارقاً في النوم.. ألقت بجسدها المنهك على السرير وأدارت له ظهرها.. ثم مسحت دمعة فرت من عينيها وحاولت أن تنام.

* * *

الأضواء تتلألأ في كل مكان من الفيلا الكبيرة التي يسكنها عم هدى ووالد سالم.. الزهور تعبق الفيلا برائحة جميلة منعشة.. الضيوف بدأوا يتوافدون، فالليلة هي عقد قران منيرة شقيقة سالم إلى خالد ابن رجل الأعمال محمد العبد الكريم..

وقفت هدى في البهو الفخم تستقبل المدعوات وإلى جوارها والدتها ووالدة زوجها وشقيقته الصغرى أمل وبنات عمه وخالاته الأربع..

وبدت هدى أجملهن بثوبها الأزرق الرائع كلون السماء، يلتف حول جسدها الممشوق برقة ويضمه بحنان، يحيط بعنقها عقد من اللؤلؤ الأبيض الجميل..

ينسدل شعرها الأسود الطويل ليغطي عنقها من الخلف وبقية ظهرها المكشوف..

كانت تبدو رائعة تلك الليلة رغم نظرات الحزن التي وشت به عيناها.. وطابع الأسى الذي كسا وجهها.. ودموع اليأس التي كادت تسيل على وجنتيها..

لم يلحظ أحد ذلك سوى والدتها التي وصلت ليلة البارحة إلى السعودية.. ولم ترها هدى سوى الليلة..

انتحت بها أمها ركناً بعيداً من أركان الفيلا وقد راعتها علامات الحزن التي تبدو واضحة جلية على وجه ابنتها.. وما أن تأكدت الأم بأن أحداً لا يسمعها حتى قالت لابنتها بصوت خافت:

- ما بك يا هدى؟ إنك لست على ما يرام..

هربت هدى بنظراتها من أعين أمها العارفة وهمست:

- لا شيء يا أمي.. لا شيء أنت واهمة..

قالت الأم:

- تستطيعين أن تقولي هذا الكلام لكل الناس عداي أنا.. فإني أعرفك حق المعرفة.. ما بك يا حبيبتي.. لماذا أنت حزينة؟

أحست هدى بعواطفها تجيش ودموعها اللاذعة تكاد تحرق عينيها.. فأجهشت بالبكاء دون أن تتكلم..

بهتت الأم.. فأمسكت بيد هدى سريعاً وتوجهت بها إلى أقرب حمام وهي تهمس بأذنها قائلة:

ـ إمسحي دموعك الآن بسرعة قبل أن يراك أحد.. والليلة إن شاء اللّـه سنتكلم في كل شيء.. هيا بسرعة..

ودفعتها إلى الحمام بيدها.. فغسلت هدى وجهها وأكملت وضع مكياجها من جديد.. وهمت بمغادرة الحمام.. ولكن والدتها نظرت إليها بابتسامة حانية وهي تقول:

ـ إنتظري قليلاً.. ليعد أنفك المحمر إلى لونه الطبيعي على الأقل..

ابتسمت هدى وهي تنظر إلى والدتها بحنان وتفكر بصمت.. هل تخبر أمها بما يعذبها أم تخفي كل شيء بداخلها وتتعذب به كجراح أدماها الصديد.. كعطشى أنهكها الظمأ..

وما أن عادت إلى الحفل من جديد حتى كان الرقص قد بدأ.. غمزت أمل لهدى وأشارت لها بأن ترقص معها..

تقدمت هدى بتردد وهي تنظر إلى والدتها.. ثم بدأت ترقص برقة.. ثم تدرج رقصها إلى العنف.. العنف الشديد.. وكأنها بركان ثائر.. وكأنها تلقي بكل انفعالاتها وعذابها في هذا الرقص المجنون، ولم تتوقف حتى أغمي عليها وسط دهشة الجميع.. وإنبهارهم..

تعاونت على حملها والدتها وأمل حتى أوصلتاها إلى حجرة الضيوف في الطابق السفلي في البيت.. تركتها أمل مع والدتها وعادت إلى الحفل.. وبعد دقائق قليلة من محاولات الأم المستميتة أفاقت هدى.. فتحت عينيها ببطء لترى وجه والدتها الحزين.. ونظرة الإشفاق التي تطل من عينيها.. فأشاحت بوجهها سريعاً ثم أجهشت ببكاء مرير..

إنتظرتها والدتها بصبر نافذ حتى انتهت من البكاء.. فسألتها بصوت حنون:

- هدى .. أنا أمك وأدرى الناس بك.. لذلك أصررت على المجيء إلى السعودية لأراك.. لأراك أنت بالدرجة الأولى.. فقد انتهزت فرصة عقد قران منيرة وأجبرت أباك على أن يوافق على حضوري إلى هنا.. إنني منذ زمن طويل وأنا أشعر بهذه الرنة الحزينة في صوتك.. فلا تعذبيني يا ابنتي باللّه عليك وأحكي لي عن كل ما يقلقك.. فأنا أمك قبل كل شيء..

نظرت هدى إلى أمها بعيون دامعة وقد أثرت فيها لهجة أمها الحزينة.. فشبكت يديها ببعضهما بعصبية قبل أن تهمس:

- أمي.. لقد تغير سالم..

صمتت الأم ولم تعلق.. فاستطردت هدى:

- أمي.. إن سالم لم يعد هو سالم الذي أحببته وتزوجته.. لقد أصبح إنساناً آخر.. إنساناً لا أعرفه ولا أريد أن أعرفه.. إنساناً غليظ القلب.. متحجر الأحاسيس.. وقد تمر عدة أيام دون أن يحادثني أو يتفوه بأية كلمة.. وأحياناً يعود إلى البيت عند الفجر.. وغالباً لا يعود إلى البيت إطلاقاً.. تنهدت هدى بعمق قبل أن تقول:

- كل هذا يهون.. كل هذا أتحمله بصبر وشجاعة.. ولكن.. آه..

صمتت فجأة وهي تضغط على رأسها بقوة.. سألتها والدتها بجزع:

- هدى.. هل يؤلمك شيء؟

ألقت هدى برأسها إلى الوراء.. وضغطت على شفتها السفلى بأسنانها وهي تهمس:

ـ أبداً يا أمي.. إنه مجرد صداع.. يعاودني أحياناً.. وسيزول بعد قليل إن شاء اللّـه..

لم تخف الأم انزعاجها وهي تسأل هدى بلهفة:

ـ وماذا حدث من زوجك أيضاً؟

نظرت هدى إلى أمها في إنفعال مكتوم.. ثم غامت عيناها بالدموع وهي تهمس لأمها بصوت متقطع:

ـ لقد سمعت أنه سيتزوج..

ضربت الأم بيدها على صدرها بقوة ثم هتفت بغضب..

ـ ومن قال لك هذا؟.

قالت هدى:

ـ لا تسأليني يا أمي فقد عرفت كل شيء..

هتفت الأم بلا وعي:

ـ وكيف عرفت؟

دمعت عينا هدى وهي تقول:

ـ لقد سمعته بأذني وهو يطلب من أمه أن تخطب له بنت خالته حصة..

قالت الأم بلهجة قلقة:

ـ ربما يقصد إغاظتك ليس إلا.

هزت هدى رأسها علامة النفي وهي تقول:

ـ كلا يا أمي.. إنه لم يكن يعلم بأنني كنت أستمع لحوارهما..

سألت الأم:

ـ وبماذا أجابته أمه؟

همست هدى:

ـ لا أدري.. لقد أحسست بالدنيا تدور من حولي ولم أسمع بقية كلامهما..

فقط بعد أيام من هذا أشارت لي أخته بطريقة سمجة إلى الموضوع وبأن أخاها سالم على وشك الزواج من أخرى..

غشيت سحابة حزن عيني الأم وهي تسأل:

ـ وأنت يا هدى.. ألم تفعلي شيئاً؟ ألم تناقشي زوجك.. ألم تحاولي؟

قاطعتها هدى:

ـ كلا.. ولن أفعل..

أيدتها الأم بهزة من رأسها وهي تقول:

ـ نعم.. لن تفعلي.. غداً نعود أنا وأنت إلى الكويت.. وإذا أرادك زوجك فليحضر ليأخذك ويتفاهم مع والدك في كل شيء..

* * *

دخل ياسر شقيق هدى الأصغر إلى بيت أهله يقفز قفزاً.. أخذ يدور في أرجاء البيت ويبحث في كل مكان..

سألته هدى:

ـ ياسر.. عمَ تبحث؟

أجاب بلثغته المحببة:

ـ أبحث عن يوسف.. لقد أعطتني تهاني ورقة له..

ضحكت هدى وهي تقول بدلال:

ـ ياسر.. أعطني الورقة..

صرخ:

ـ لا .. إنها ليوسف لن أعطيها لك..

ابتسمت هدى وهي تخرج من جيبها قطعة شوكولاتة..

ـ وإذا أعطيتك هذه..

قطب ما بين حاجبيه الصغيرين وهو ينظر إلى الشوكولاته بشغف.. ثم مد يده وأعطى هدى الورقة وانتزع الشوكولاته منها..

وأسرع عدواً خارج البيت.. ضحكت هدى وهي تفتح الورقة لتجد ست كلمات مكتوبة بخط أنيق دقيق..

(يوسف.. أحبك.. أنتظرك اليوم في الموعد نفسه).

تهاني

تنهدت هدى وهي تطوي الورقة وتضعها في جيبها..

تساءلت في سرها.. ترى لو كان عماد هو الذي أرسل لها هذه الورقة.. هزت رأسها بشدة لتطرد هذا الخاطر.. يجب أن تنسى عماد هذا.. فهي امرأة متزوجة.. وزوجها لا يزال يحبها بدليل أنه يحاول يومياً أن يكلمها هاتفياً، ولكنها ترده خائباً.. لقد تنصت البارحة على مكالمته مع والدتها.. سمعت صوته متردداً حائراً يسأل أمها بخوف:

ـ خالتي.. أريد أن أكلم هدى..

ترد عليه والدتها بصوت حازم:

ـ ولكن هدى لا تريد أن تكلمك.. فإذا كنت تريد التفاهم فأحضر لتتفاهم مع والدها..

هتف سالم:

ـ خالتي.. إنني أريدها بموضوع مهم.. أرجوك أخبريها بهذا..

رق قلب هدى وكادت تصرخ (ماذا تريد يا حبيبي)

ولكن والدتها أنهت المكالمة بسرعة وهي تقول:

ـ هدى مشغولة الآن.. اتصل في وقت آخر..

قال سالم وقد بدأ الغضب يستولي عليه:

ـ إنني أتصل يومياً ودائماً هي مشغولة.. خالتي لا تنسي أنني زوجها.. وأنني..

قاطعته الأم:

ـ مع السلامة يا ابني.. سلامي إلى والدتك..

ووضعت السماعة مكانها بسرعة.. لتسمع هدى التنهدات الحارقة من زوجها قبل أن يلقي بالسماعة هو الآخر..

ولكن هل تحن إليه.. هل ترق.. هل تنسى وتسامح وقد أذاقها ذل الهوان.. ومرارة التشفي.. لا.. لن تسامحه.. لن تغفر له حتى يأتي راكعاً إلى بيتهم.. يمسح بدموعه ما سببه لها من آلام.. وجراح.. وعذاب..

وسألت نفسها بمرارة:

- لماذا هو لا يريد أن يأتي.. بل لماذا هو يسأل عنها يومياً؟

ترى هل فشل موضوع زواج.. أم ماذا؟

أفاقت من سيل أفكارها على صوت يوسف:

- هيه.. إلى أين وصلت؟ هنا أم خارج الحدود..

ابتسمت بحياء ثم ناولته الورقة المطوية..

قرأها بلهفة.

غمزت له هدى وهي تضحك:

- وماذا جرى داخل الحدود..؟

ضحك وهو يضع الورقة داخل جيبه.. ثم ظهرت على وجهه إمارات الجد وهو يسأل هدى:

- هدى.. أخبريني بصراحة.. ما رأيك في تهاني؟

- فتاة جميلة وهادئة.. و.. ولا شيء آخر..

هتف يوسف:

- كلا.. أقصد هل ترينها تصلح زوجة لي.. حيث أنها خجولة جداً.. وأكثر من اللازم وأنا لا أحب الخجل في الفتيات.. أحب أن تكون زوجتي فتاة جريئة.. تضحك وتمزح.. وتعلق ولا تخجل مني..

ضحكت هدى وهي تقول:

- حسبك.. حسبك هذا.. يجب أن تحمد اللّه على هذا وتدعوه أن يستمر هذا الخجل لما بعد الزواج.. فكما قال أحد الكتاب (يذهب

نصف حياء المرأة عندما تتزوج ونصفه الآخر عندما تنجب) فأحمد اللّه على هذا..

جاءها صوت والدتها من خلفها:

- يحمد اللّه على ماذا؟ هيا يا هدى.. أنسيت الموعد.. إن الساعة الآن الرابعة وموعد جابر في المستشفى هو الرابعة والنصف.. هيا أخبري السائق ليعد السيارة.. وكأن هدى تذكرت شيئاً قد نسيته.. فقفزت قفزاً من مكانها وهي تهتف:

- يا اللّه.. نعم لم يبق سوى نصف ساعة على موعد التمارين الخاصة بجابر.. حسناً يا أمي سأصعد فوق لأرتدي ملابسي..

ثم أردفت:

- هل نهض جابر من النوم؟.

قالت الأم:

- لقد أيقظته منذ قليل.. والخادمة تلبسه ثيابه.. هيا أسرعي يا هدى لنعود مبكرين.. فأبوك عنده ضيوف الليلة..

أسرعت هدى تصعد الدرج بينما ذهبت أمها لتبلغ السائق بأن يجهز السيارة..

وفي هذه الأثناء علا رنين الهاتف.. لم يرد أحد عليه.. فقفزت هدى لترد..

وبعد أن همست (ألو.. نعم) فوجئت بصوت زوجها سالم يهدر غضباً:

- هدى.. أخيراً تنازلت ورددت على التليفون.. أين أنت كل هذه الأيام.. ولماذا لم تردي علي..؟

صعقت هدى.. فلم تدر بماذا تجيبه..

طال صمتها فصرخ فيها مرة أخرى:

- هدى لا تعانديني.. فيكفي ما فعلته بي..

لم تتكلم.. فقد أحست بالكلمات تحتبس في حلقها.. وتتعثر داخل جوفها.. فلم تنطق..

استشاط سالم غضباً فقال من بين أسنانه:

- هدى.. اسمعيني.. إذا لم تتكلمي الآن، فسوف تندمين طوال عمرك.. إنها آخر فرصة لك..

ودت لو تنطق.. ولكن.. لسانها يعصاها.. والكلمات تعاندها، وقلبها يخفق بعنف وكأنه يعبر عما يدور داخلها دون كلام..

ارتجفت حينما سمعت صرخة سالم:

- هكذا إذن.. حسناً.. مع ألف سلامة..

سمعت ارتطام سماعته بعنف.. أحست بانهيار تام.. فسالت دموعها رغماً عنها.. ليعلو صوت بكائها ونحيبها بعد لحظات..

تناهى إلى سمعها صوت والدتها:

- هدى .. هيا أسرعي.. السائق ينتظرنا..

ولم تكن إجابة هدى سوى مزيد من البكاء والدموع الحارقة..

استبطأتها، والدتها فصعدت الدرج بهدوء لتجد هدى منكفئة على وجهها تبكي ودموعها تبلل كل شيء حتى سماعة الهاتف الملقاة إلى جوارها..

ضمتها أمها إلى صدرها وهي تسألها بحنان:

- هدى.. ما بك.. من كان يحادثك بالهاتف؟

نظرت هدى إلى أمها بعينين دامعتين.. ثم خنقتها العبرة فبكت من جديد..

سألتها والدتها بقلق ونظرة تطوف في عينيها..

- أتراه سالم قد حادثك؟.

هزت هدى رأسها دون أن تجيب..

همست الأم:

ـ وماذا قال لك؟

تكلمت هدى أخيراً بصوت باكٍ:

ـ لم يقل شيئاً..

سألتها والدتها بخوف:

ـ إذن.. ما الذي يبكيك؟

تمالكت هدى نفسها.. ثم قالت لأمها بصوت أقرب إلى الهمس..

ـ إنه غاضب يا أمي.. بل إنه يهدد ويتوعد.. ولا أدري ما الذي يخبئه لي القدر..

ربتت الأم على رأسها بحنان.. ثم قالت:

ـ لا تهتمي له.. إنه لا يستطيع أن يفعل شيئاً..

هيا يا حبيبتي.. هيا فالسائق في إنتظارنا..

* * *

في بيت فاطمة صديقة هدى اجتمعت الصديقتان وسط جمع من الأقارب والأهل.. فالليلة يقام حفل عشاء بمناسبة تسلم زوج فاطمة عمله الجديد..

وقفت هدى إلى جوار صديقتها في المطبخ تشرفان على إعداد مائدة العشاء..

بدت هدى رائعة الجمال بتايير أسود أنيق.. وشعرها يرتفع إلى قمة رأسها بشكل كعكة جميلة يزين جيدها عقد أسود مع أقراط سوداء كبيرة في الأذنين.. همست فاطمة لهدى:

ـ هدى.. أتدرين إنني خائفة، فقد بدأت أشعر بأعراض الحمل..

شهقت هدى وهي تقول:

ـ بهذه السرعة.. إن رنا لم تكمل العام من عمرها بعد..

قاطعتها فاطمة قائلة بتأفف:

ـ قلت لك لا أدري بعد.. ولكنني أشعر بدوخة وغثيان شديدين عند النهوض من النوم في الصباح..

أرادت هدى إضفاء روح المرح على حديثهما فهمست قائلة:

ـ كل هذا وتقولين لا أدري بعد.. أبصم بالعشرة بأنك حامل وبتوأم إن شاء اللّه..

دفعتها فاطمة بيدها وهي تقول:

ـ أعوذ باللّه من كلامك.. فال اللّه ولا فالك.. هيا أغربي عن وجهي واذهبي لتجلسي مع الضيوف..

أسرعت هدى إلى حجرة الجلوس.. وما إن شارفت على الدخول إلى الحجرة حتى سمعت إحدى المدعوات وهي تقول:

ـ إن هدى أجمل منها بكثير..

هتفت أخرى:

ـ إن سالم لا يهمه الجمال.. لقد تزوج بأخرى لأنه يريد الإستقرار والسعادة..

استندت هدى إلى جدار المدخل لكيلا تقع على الأرض.. أحست بدوار شديد وشبه إغماءة.. إذن فقد فعلها وتزوج.. هل هذا هو التهديد الذي يقصده.. إذن هو أراد أن يذلها.. يهينها ويحطمها..

فتحت عينيها في شبه ذهول لتفاجأ بفاطمة واقفة أمامها تسألها بسخرية:

ـ إذن من منا الحامل.. أنا أم أنت؟

لم تضحك هدى.. مما أثار الجزع في نفس فاطمة، فسألت هدى بقلق:

ـ هدى.. ماذا بك؟.. كنت أعتقدك تسخرين مني..

ابتسمت هدى بصعوبة ثم قالت:

ـ فاطمة.. اعذريني.. أريد أن أعود إلى البيت مبكراً..

تصدت لها فاطمة بقوة.. ثم سألتها بخوف حقيقي:

- هدى.. حرام عليك.. لقد أثرتي خوفي.. ما بك باللّه عليك؟.

ببرود شديد همست هدى:

- سالم.. لقد تزوج..

هتفت فاطمة:

- ومن أخبرك بذلك؟.

بالبرد نفسه أجابت هدى:

- لقد سمعت ضيوفك يتحدثن في هذا الأمر الآن..

أمسكت فاطمة بيد هدى، وجذبتها بسرعة نحو حجرة نومها.. أجلستها على السرير ثم قالت لها قبل أن تغلق الباب:

- ارتاحي قليلاً.. وسوف أوافيك بجميع الأخبار بعد قليل..

* * *

عادت هدى إلى منزل والدها خائرة القوى.. منهكة.. وكأنها كانت في صراع نفسي لا تقوى على احتماله..

استقبلتها والدتها بدهشة وهي تسأل:

- هدى ما الذي جرى.. لماذا عدت باكراً.. لقد أخبرتيني بأنك لن تعودي قبل الثانية عشرة..

ابتسمت هدى بسخرية مريرة وهي تقول:

- أمي.. لقد تزوج سالم من ابنة عمه حصة منذ أسبوع فقط..

وقع الخبر على الأم وقوع الصاعقة.. فهتفت بانفعال:

- لن نسكت.. ستطلبين الطلاق.. وسأزوجك من أفضل رجل في الدنيا..

سالم لا يستحق حتى قلامة ظفرك.. لا يستحق الجمال والدلال والعقل.. لقد وجد أخيراً من تناسبه.. إنها..

قاطعتها هدى:

ـ أمي.. أرجوك كفى.. لا أريد سماع المزيد.. سالم انتهى من حياتي.. ولا أريد أن أعرف أي شيء عنه.. فقط أريد طلاقي..

ثم نهضت ببطء، وكأنها تنتزع نفسها من الكرسي.. ومشت بتخاذل نحو حجرتها.. وقبل أن تدلف إلى الحجرة جاءها صوت والدتها قوياً هذه المرة.. حاسماً.. كالقدر:

ـ سأهاتفه غداً ليرسل لك ورقة طلاقك على جناح السرعة..

لم تلتفت هدى خلفها، وكأنها لم تسمع نهاية حبها وأحلامها.. لفها الحزن كشرنقة دائمة.. فاستسلمت له بصمت.. أخذت تحدق طويلاً بسقف الحجرة دون أن يغمض لها جفن..

ترى.. هل هو سعيد الآن بعد أن حكم على حبها بالإعدام شنقاً؟.

ترى.. هل هو يحب عروسه الجديدة كما كان يحبها؟.

ترى.. هل يفكر فيها الآن أم أنه قد نسيها كمن ينسى لعبة قديمة ملها؟.

أحست بقلبها يحترق بين ضلوعها.. كيف ينسى كل شيء بلمح البصر؟.

كيف ينسى الحب والحنان والتضحية؟ كيف ينسى أيامهما الحلوة؟.

تندت عيناها بالدموع.. ولكنها لم تبك.. لم تستطع البكاء أبداً..

أحست كأن هناك شيئاً يمنعها من البكاء.. كأن هناك شيئاً يمسك بدموعها ويسد حلقها..

فأخذت تتقلب على فراشها الدامي حتى أراحها النوم أخيراً.. وانتشلها من همومها ولو لبضع سويعات..

* * *

في قاعة المستشفى الكبير، حيث يغص بالمرضى الغادين والرائحين.. وقفت هدى تحمل طفلها جابر وإلى جوارها والدتها.. في الوقت نفسه الذي أقبلت فيه الممرضة تدعو هدى لمقابلة الطبيب..

دخلت هدى تقدم رجلاً وتؤخر الأخرى، يشملها خوف مفاجيء، وكأن الطبيب قاضٍ سيحكم عليها إما بالبراءة أو بالإعدام..

صاح الطبيب بعد أن رأى جابر:

ـ ما شاء اللّه.. لقد كبر جابر وأصبح رجلاً.. يجب أن تبحثوا له عن عروس منذ الآن..

ثم أردف بعد أن بدأ يكشف عليه:

ـ وكم عمره الآن؟

قالت هدى بيأس:

ـ إنه في الثالثة من عمره يا دكتور.. ثلاث سنوات وأربعة أشهر إن شئت الدقة..

سألت والدتها بقلق:

ـ ماذا ترى يا دكتور.. هل تعتقد بأنه سيستطيع المشي؟ إنه يجلس الآن بمنتهى السهولة..

ابتسم الطبيب بحنان وهو يجيب:

ـ لماذا الخوف.. ولماذا الإستعجال؟ كل شيء بأوانه.. وإن شاء اللّه سيكبر وسيمشي وسيتزوج أيضاً..

لا تقلقي يا سيدتي، فإن قدميه إكتسبتا الكثير من المرونة أثناء التدريبات.. وبتكثيف هذه التمرينات سيتحسن إن شاء اللّه وسيستطيع المشي..

الآن سنبدأ معه التمرينات أربع مرات في الأسبوع بدلاً من مرتين.. أرجو أن تحافظوا على هذه المواعيد.. ليكتسب مرونة ولياقة تمكنه من المشي..

ثم أردف بعد هنيهة صمت:

ـ هل يتكلم بطلاقة ويعرفكم جيداً؟.

أشرق وجه الأم بسعادة وهي تهتف:

ـ بالطبع يا دكتور.. إنه يتكلم أحسن منا جميعاً.. ويعرفنا واحداً واحداً.. أليس كذلك يا جابر؟

ابتسم الصغير وأطرق برأسه خجلاً..

وفي الطريق إلى المنزل همست الأم لهدى..

ـ إنني لا أثق بالأطباء.. ما رأيك يا هدى.. أم عماد جارتنا أخبرتني بأن هناك عجوزاً تدعى أم أحمد مشهورة جداً بالطب الشعبي.. يقال بأنها تلجأ إلى الكي والأعشاب كدواء لجميع الحالات..

تأففت هدى وهي تقول:

ـ وهل تصدقين يا أمي مثل هذه الخرافات.. إنها شعوذة.. غالباً ما تؤدي إلى الهلاك..

هتفت الأم بحماس:

ـ كلا يا هدى.. لسن جميعاً هكذا.. إن هذه المرأة معروفة من الجميع، وقد شفى اللّـه على يديها سعد ابن صفية المدرسة.. وعلي.. ألا تذكرينه.. ذلك الصبي الأعرج ابن حامد البقال لقد حولته بقدرة قادر إلى إنسان طبيعي لا يشكو من أي عرج، وذلك بكية بسيطة على رأسه.. هاه ما رأيك آخذ جابر غداً إليها أم ماذا ترين؟.

صرخت هدى رغماً عنها:

ـ لا يا أمي أرجوك.. أنا لا أؤمن بمثل هذه الخرافات والأباطيل.. ثم حتى لو أنها بقدرة اللّه استطاعت علاج بعض الحالات.. فكثير من الحالات يا أمي تفشل ولا نسمع عنها شيئاً لأنها لم تنجح في علاجها..

لا يا أمي.. لن أغامر بجابر في مخاطرة غير مضمونة حتى ولو بقي العمر كله معاقاً..

مصمصت الأم شفتيها بيأس وهي تقول:

ـ هكذا.. يا بنات هذه الأيام.. لا تعترفن إلا بالطب الحديث والمستشفيات..

عموماً أنت حرة.. ولكنني ذاهبة إليها غداً لتعالجني من هذا الصداع الدائم الذي حطم رأسي.. هيا.. هيا أنزلي فقد وصلنا..

وما إن دخلت إلى البيت حتى علا رنين الهاتف.. أسرعت هدى لترد.. ثم صاحت بفرحة:

- أهلاً يا فاطمة.. كيف حالك.. وحال الصغيرة؟

- الحمد للّه نحن بخير.. ألم تذهبي اليوم للجامعة؟

- لا.. فقد استأذنت رغم أنه الأسبوع الأول من العام الدراسي.. ولكن جابر أهم.. إن لديه موعداً في المستشفى..

- حسناً وماذا قال لك الطبيب؟

تنهدت هدى:

- آه.. لا شيء جديداً.. كالعادة كشف عليه ولم يقل شيئاً..

- الحمد للّه على كل حال.. عموماً.. كنت سأسألك عما فعلتيه في الجامعة.. وما دام الأمر كذلك.. إذن وداعاً..

- إلى أين؟ ما زال الوقت مبكراً..

- أنت تعرفين.. فأنا في شهوري الأولى من الحمل. وسأذهب بعد قليل لأتغدى عند أمي..

- إذن وداعاً..

* * *

جلست هدى بالقرب من والدها.. ترمقه كل فينة وأخرى، وهو يتحدث بالهاتف إلى عمها والد سالم..

بدا والدها عصبياً وهو يحدث عمها.. إنها لا تسمع شيئاً من حديثه.. فهو يتكلم بصوت خفيض، ولكنها تفهم كل شيء من انفعالات وجهه وحركات يديه الغضبة.. أنهى المكالمة سريعاً.. ثم جلس بجوارها صامتاً.. شاءت هدى أن تقطع الصمت، فقالت له بصوت بدا غريباً على مسامعها:

ـ أبي.. ما الأخبار؟

تمتم والدها..

ـ خير.. كل خير إن شاء اللّـه..

بتردد كبير.. قالت:

ـ هل.. أقصد.. هل.. وافق سالم على طلاقي؟

ندمت على تسرعها لما رأته على ملامح والدها من الضيق الشديد.. وكأنها نكأت جرح نفسه.. وكأنها ذكرته بشيء يريد أن ينساه..

تكلم بصعوبة:

ـ لقد أرسل ورقة طلاقك بالبريد اليوم..

شلتها الصدمة.. فلم تدر ماذا تقول.. وهل توقعت شيئاً آخر.. أن يتمسك بها زوجها مثلاً ويرفض طلاقها.. من قلبها تمنت ذلك.. ولكن كلمات والدها اغتالت كل أمل لها في عودته.. بل وقتلت كل شيء جميل داخل نفسها الحائرة..

نهضت بعجلة وشيء ما بداخلها يتحطم.. لتتناثر شظاياه وتمزق أحلامها.. كل أحلامها.. لا.. لم يتبق لديها أمل في غد.. وأي أمل؟ وقد تحطمت مرتين متتاليتين.. وكانت القصمة الثانية موجعة.. مريرة.. طردت كل أمل لها في حياة سعيدة.. فالطعنة من الحبيب تكون أقسى وأمر.. وأشد وقعاً على روحها الممزقة من الطعنة الأولى..

أتاها صوت والدها لينتشلها من واقعها المرعب إلى واقع أشد رعباً وكآبة..

كان صوته حزيناً.. مشفقاً وهو يقول:

ـ هدى.. إلى أين؟

ابتلعت دموعها باستماتة.. وجاهدت لترسم ابتسامة لا مبالاة على ملامحها المفجوعة.. ولكن ابتسامتها كانت تقطر مرارة.. وتذوب أسى ولوعة.. عكست ملامحها ما يدور داخلها من عذاب مرير..

جاءها صوت والدها للمرة الثانية مضمخاً بالحنان:

ـ هدى.. حبيبتي.. هل أنت حزينة؟

وكأنها تقاوم جيوشاً من الأحـزان بـدأت تزحـف علـى روحهـا كدبيب النمل..

فلـم تقـاوم.. أجهشـت بالبكـاء.. سـالت دموعهـا لتفـرغ شـحنة الحزن والألم داخلها.. أخذها والدها بيـن ذراعيـه وغلالـة رقيقـة مـن الدموع تغشى عينيه..

جزعت والدتها من المنظر.. أتت مسرعة لتسأل الوالد بقلق:

ـ "أبو يوسف".. ماذا حدث.. وما الذي يبكي هدى؟

تمالك الأب نفسه.. فقال لها:

ـ سالم.. طلق هدى اليوم..

ظهر الهلع علـى وجـه الأم.. ولكنهـا جـاهدت لترسم ابتسـامة على وجهها الطيب..

ثم قالت بتصنع:

ـ الحمد للّـه.. هذا خير ما فعل.. فما كانت هـدى لتقبـل العـودة إليـه.. وهو متزوج بأخرى.. إنه أبداً لا يستحق هدى..

أشار إليها الأب بعينيه أن تصمـت.. فسكتت علـى مضـض.. في الوقت نفسه الذي دخل فيه يوسف البيت فرحاً مهتاجاً..

صـرخ بفرحـة دون أن يتبيـن الموقـف الحزيـن الـذي يحـدث أمامه:

ـ بارك لي يا أبي.. لقد وافق أبو عماد علـى زواجنـا أنـا وتهـاني فـي إجازة نصف العام الدراسي..

لم يرد عليه أحد.. رمقه والده بنظرة.. فهـم معناهـا.. فتنهـد.. وهو يقول بارتباك:

ـ حسناً.. سأذهب.. أنا سأذهب الآن.. لدي موعد عاجل.. إلى اللقاء..

صرخت الأم وهي تلوي عنقها نحو الدور العلوي في الفيللا:
- هيا يا هدى.. أسرعي.. العريس ينتظرك أمام الباب.. لقد تأخرت على موعد الكوافيرة..
لم تسمع الأم رداً.. فصرخت بصوت أقوى من الأول:
- هدى.. إن يوسف لديه الكثير من المواعيد اليوم.. فلا تتأخري عليه.. فلن يوصلك غيره..
أسرعت هدى تهبط الدرج وشعرها مبلل بالماء.. قالت لوالدتها:
- حسناً يا أمي.. ها أنذا جئت.. لقد كنت أغسل شعري..
ثم أردفت بصوت ضاحك:
- ما أخبار أم العريس؟.
ابتسمت الأم بحيرة وهي تقول:
- كما يقولون.. أم العريس فاضية ومشغولة.. هيا الآن.. أسرعي فيوسف ينتظرك في السيارة، أنت تعرفين أن السائق مشغول طوال اليوم ولن يوصلك غير يوسف..
مرقت هدى كالسهم نحو الباب.. وقبل أن تخرج استدارت قائلة:
- أمي.. أنا سأذهب مباشرة إلى الفندق مع فاطمة.. لا تشغلوا بالكم بي..
وفي ليلة زواج يوسف شقيق هدى.. تألقت هدى كعروس في ليلة زفافها.. حاولت أن تنسى وضعها القبيح.. مطلقة مرتين على التوالي.. استجمعت إرادتها الشجاعة وتناست كل شيء.. وكأنها لم تتزوج إطلاقاً.. حاولت أن تضحك.. أن تفرح.. أن ترقص.. أن تنسى كل أحزانها.. وتغسل همومها الداخلية.. فالليلة هي ليلة فرح شقيقها.. ومن حقه عليها أن تنسى كل شيء من أجله.. ماضيها

وحاضرها وحتى مستقبلها، إنها لا تزال تذكر كلمات يوسف قبل زواجه بأيام..

- هدى.. عديني بأنك لن تفكري في أي شيء ليلة زواجي.. أريدك أجمل فتاة في ليلة الزفاف..

ضحكت هدى بمرح وهي تقول:

- أجمل من تهاني؟

ابتسم يوسف ثم ارتسمت علامات الجد على وجهه وهو يقول..

- عديني يا هدى..

ابتسمت بعذوبة وهي تهمس:

- أعدك..

لذلك تمنت هذه الليلة أن تحافظ على وعدها ليوسف رغم ما رأته في أعين الناس.. رغم نظرات الشفقة التي تحوطها.. رغم نظرات الدهشة والألم التي رمقها بها معظم الموجودين.. إنهم يستنكرون عليها فرحتها.. يضنون عليها بالسعادة.. فالمطلقة من وجهة نظرهم يجب أن تحيط نفسها بأسوار من الحزن والتعاسة.. أن تتكلم بصوت يقطر مرارة.. وأن تنظر بعيون تغشاها الدموع.. إن المطلقة ليس لها الحق في الحياة كغيرها من البشر.. بل هي إنسانة منبوذة.. فاشلة.. محكوم عليها باليأس طوال حياتها..

لا.. لن أيأس.. همست لنفسها لتشحن عزيمتها وتقوى إرادتها..

ثم مضت رافعة رأسها بكبرياء حقيقية.. وابتسامة رائعة تتوج شفتيها لترد على من حكموا عليها بالموت وهي في ريعان الشباب..

رقصت فأبدعت.. ونالت إعجاب كل الموجودات.. حتى من يتغامزن عليها.. حتى من تدهشهن فرحتها.. حتى من يرهبن جمالها..

في تلك الليلة ولدت هدى.. خرجت من شرنقتها السوداء الحالكة.. إلى عالم كله ألوان وسعادة رغم أنف الجميع..

في تلك الليلة رأت الزوجة الجديدة لزوجها السابق سالم.. لقد حضرت برفقة شقيقات سالم.. استقبلتهن هدى بمرح وسعادة.. بدون عذابات.. بدون حساسيات.. بدون حتى الآلام.. ولم تفتها نظرات الغيظ المكتوم الذي رمقتها بها حصة زوجة سالم الجديدة.. عذرتها هدى في ذلك فهي بالتأكيد ترى نفسها لا شيء إلى جوار هدى..

في الليلة نفسها سافر يوسف وعروسه إلى باريس ليقضيا شهر العسل هناك..

وعادت هدى إلى حجرتها لتخلع قناعها السعيد الذي ارتدته طوال اليوم.. ولتواجه وحدتها وحزنها بعد أن ملت التصنع والتمثيل.. وكرهت التظاهر المقيت.. وادعاء ما ليس فيها.. عادت إلى حجرتها المظلمة الحزينة.. ورأت واقعها كما لم تره قبلاً.. جسمت لها الوحدة حقيقتها.. وضخمه خيالها البائس.. فرأت نفسها كشجرة عجفاء في وسط الصحراء المترامية الأطراف.. وحيدة إلا من عذابها.. شقية حتى بنفسها.. ألقت برأسها المتعب على الوسادة تتوسل النوم أن يجيء، ولكن هيهات.. إنه أبعد من أحلامها المتواضعة.. وأعز منالاً من أن يتحقق لها..

سكبت عذابها دموعاً حارقة على وسادتها الصغيرة.. أودعتها ألمها وحزنها ولوعتها..

أغلقت عينيها لتطرد اليأس الذي خيم عليها.. ولكنه أحكم قبضته على روحها الهائمة ليقتلها حتى آخر نفس..

أفاقت على خبر هزها حتى الأعماق.. فتحت عينيها المتورمتين من آثار البكاء على صوت والدتها:

ـ هدى.. ألم تنهضي بعد.. إن الساعة الآن تشير إلى الواحدة ظهراً..

فتحت هدى عينيها بصعوبة لترى الساعة.. ثم قفزت من فراشها سريعاً إلى الحمام.. خشيت أن تلمح والدتها آثار بكائها العنيف ليلة البارحة..

وهي في الحمام.. جاءها صوت والدتها:

ـ هدى.. لقد سمعت الآن خبراً مؤسفاً.. لقد طلق عماد زوجته..

بهتت هدى.. فخرجت من الحمام غير آبهة بنظرات والدتها المندهشة..

سألت هدى:

ـ أمي.. من قال لك هذا الخبر؟

نسيت الأم ذهولها وهزت رأسها بأسف وهي تقول:

ـ هاتفتني أم عماد منذ قليل لتسألني عن يوسف وتهاني، ثم أنهت إلي بهذا الخبر المؤسف..

هتفت هدى:

ـ أماه.. إني لا أكاد أصدق.. صحيح أنني دهشت لعدم حضورها زواج يوسف وتهاني البارحة ولكن.. ثم استطردت هدى بذهول:

ـ أمي.. ألم تخبرك أم عماد سبب هذا الطلاق؟

نكست الأم رأسها إلى الأرض وهي تقول:

ـ بلى.. أخبرتني.. قالت لي بأن "عماد" لم يحب زوجته منذ البداية فهي ليست كما تمناها رغم أنها تمت لهم بصلة قرابة.. كما أنها دائمة الشجار والخصام معه وتعاتبه على أتفه الأسباب، وحدث شجار بينهما

منذ شهر هجرته بعدها، ورفضت العودة إلى بيت الزوجية مما أجبره على طلاقها..

أطلقت هدى صفيراً حاداً من فمها تعبيراً عن دهشتها قبل أن تقول:

ـ ولكنهم يا أمي لم يخبرونا بشيء.. ولم تتفوه أم عماد بأي شيء عن حياتهما.. لذلك كان طلاقهما مفاجأة لنا..

قالت الأم:

ـ نعم.. فقد قالت لي أم عماد بأن عماد أوصاها بألا تتكلم إطلاقاً في هذه المشكلة حتى لا يتأثر زواج يوسف وتهاني.. وبعد انتهاء حفلة الزفاف كان لا بد من انتشار الخبر..

أردفت الأم بلهجة قلقة..

ـ هدى.. عيناك ما بهما؟ إنهما متورمتان..

تذكرت هدى تورم عينيها، فأشاحت بوجهها عن عيني والدتها وهي تقول بصوت خافت:

ـ لا شيء.. فقط لم أنم البارحة إلا في وقت متأخر.. إنه السهر يا أمي..

* * *

للمرة العشرين نظرت هدى إلى الورقة الصغيرة وهي في شبه ذهول.. وجهها شاحب وعيناها زائغتان.. ويداها ترتجفان.. والورقة الصغيرة تهتز بعنف لتتراقص كلماتها الصادقة أمام عيني هدى.. لتقرأها المرة تلو الأخرى.. وتحفظ كلماتها عن ظهر قلب..

ـ (هدى.. أنت حبي الوحيد والحقيقي.. تأنيت في المرة الأولى فضعت مني.. وعاندت وكابرت في المرة الثانية ففقدتك.. ولكن الآن لا.. أنا

أحبك.. صحيح أنني أخطأت مرة، ولكني لن أخطأ بعدها أبداً.. أنت لي وأنا لك لن يفرقنا إلا الموت)

عماد

هزها التوقيع أكثر مما اهتزت لكلمات الرسالة القصيرة.. معقول هذا!؟ عماد.. بعد كل هذه السنوات وكل هذا العذاب يأتي أخيراً.. كقدر مستحيل.. وكأمل بعيد.. كأحلام ممنوعة.. معقول.. معقول.. عماد؟.

من أحبته يوماً.. وتمنته سنوات طويلة.. وسكن في قلبها دهوراً..

عماد حبها الأول والأخير.. يتذكرها بعد كل تلك السنوات.. ترى.. هل كان يبادلها حبها فيما مضى؟ ولكنه تأنى فضاعت منه كما يقول في رسالته.. أم أنه لم يكتشف حبها إلا بعد ضياعه؟ كما أننا دائماً لا نهتم لشيء إلا إذا فقدناه.. ولا نحب من يبادلنا الحب إلا إذا أحسسنا بأنه ضاع من أيدينا.. وعماد.. ترى.. هل هو صادق في حبه أم أنه يريد أن يتسلى بها، بالتأكيد هو يعلم أنها مطلقة مرتين ويعرف بالتالي أسباب طلاقها.. ولكن ترى.. هل هو جاد في كلماته أم أنه يهزل معها؟ أو أن أحداً غيره يريد أن يسخر منها؟.

سألت شقيقها الصغير ياسر للمرة الألف:

- أجبني بصراحة يا ياسر من أعطاك هذه الورقة؟.

فتح الصغير فمه بعصبية.. وقال وهو يتأفف:

- قلت لك عماد.. عماد ابن الجيران، وقال لي سلمها إلى أختك هدى.. أوف.. ألا تكفين عن السؤال.. يا لك من أخت مزعجة..

ابتسمت هدى بحيرة.. وكلمات الرسالة تخترق أعماقها وتمتزج في دمائها.. عماد.. أحلى كلمة رددتها في سباق أيامها.. حروف اسمه كسمفونية تعزف أعذب الألحان..

أسهدها حبه ليالي كثيرة.. ومزقها العذاب شهوراً طويلة.. وقتلها الإنتظار سنوات وسنوات، والآن يأتي جاثياً على ركبتيه يطلب الحب والسماح كفارس استيقظ أخيراً من سباته.. كحب يستوطن الرماد لينتفض قوياً.. كنفس تودع ليلها المظلم لتبزغ وتنور الدنيا..

أيقظها رنين الهاتف من دنيا أحلامها.. ما إن سمعت صوت المتحدثة حتى هتفت فرحاً:

ـ فاطمة.. أين أنت؟.

ـ أين أنت! ألم تعرفي بعد؟ إنني طريحة المستشفى منذ أيام وأنت.. أنت لا تسألين عني..

بجزع هتفت هدى:

ـ أحقاً؟ ماذا بك؟.

ـ لا شيء.. فقط أجهضت..

شهقت هدى ثم قالت بأسى:

ـ وكيف حدث هذا؟

بصوت ضعيف أجابت فاطمة:

ـ أبداً.. فقد حدثت مشادة كبرى بيني وبين زوجي بعد عودتي من حفلة زواج أخيك يوسف انتهت بأن دفعني بقوة مما تسبب في إسقاط الجنين..

أطرقت هدى برأسها في حزن ولم تشأ أن تسأل صديقتها عن سبب المشادة.. فهي بالتأكيد بعد عودتها من العرس وجدته مخموراً.. هكذا هو دائماً..

همست هدى بحزن مرير:

ـ لا عليك يا فاطمة يعوضك اللّه خيراً إن شاء اللّه..

ضحكت فاطمة ضحكة باهتة وهي تقول:

ـ لا تحزني هكذا يا هدى.. صدقيني أنا لست حزينة، فزوجي لا يستحق أبداً أن يكون أباً لاثنين.. تكفيه طفلة واحدة..

لم ترد هدى فوراً وبعد لحظة صمت همست:

ـ أنا آسفة يا فاطمة، فقد انشغلت كثيراً بعد زواج أخي يوسف، ولكن بعد لحظات سأكون عندك.. في أي مستشفى أنت؟

ومضت هدى تدون إسم المستشفى وعنوانه في ورقة صغيرة.. ثم أسرعت تهبط الدرج لتخبر والدتها بأمر فاطمة.. وقد اختلط أمر الورقتين فحملت ورقة عماد في يدها وتركت ورقة عنوان المستشفى في حجرتها..

وبعد لحظات كانت تركب السيارة هي ووالدتها.. ولم يجدا السائق فتطوع الأب بتوصيلهما إلى المستشفى.. وفي الطريق سألها والدها:

ـ هدى.. في أية منطقة يقع المستشفى؟ أخرجت هدى الورقة من جيبها وسلمتها لوالدها دون أن تنظر إليها..

وفجأة تجمد الأب.. وانقبضت أسارير وجهه واهتزت يداه.. وبدا كأنه يخوض معركة كبرى داخل نفسه.. انتهت بتماسكه..

سأل الأب هدى بهدوء مشوب بالحذر..

ـ إنني لا أرى جيداً العنوان.. فماذا قالت لك اسم المستشفى.. نطقت هدى بإسم المستشفى بدهشة.. ولم يدر بخلدها بأن والدها قد عرف كل شيء.. وربما فهم أكثر مما تقوله كلمات الرسالة.. وربما أخطأ في الفهم أيضاً..

فما أن عادت هدى ووالدتها من زيارة فاطمة حتى قال لها والدها:

ـ هيا بدلي ثيابك.. والحقي بي في المكتب فإنني أريدك..

انقبضت هدى رغماً عنها.. وإن لم تدر ماذا يريد بها والدها؟.

تذكرت عماد.. امتلأ قلبها بالبهجة.. ربما هو عماد قد طلبها للزواج من والدها.. ولكن كيف بهذه السرعة.. إن الورقة لم تصلها إلا اليوم..

هنا تذكرت أمر الورقة.. فمضت تصعد بعجل.. وأسرعت نحو منضدة الزينة.. تناولت الورقة المطلوبة بأيد مرتجفة، لتفاجأ بأنها الورقة المدون عليها عنوان المستشفى.. إذن..؟

كتمت صرخة كادت تفلت منها.. إذن فقد عرف والدها كل شيء.. كل شيء.. وهو لهذا طلبها لا كما تبادر إلى ذهنها.. بالتأكيد سيطلب تفسيراً عاجلاً لهذه الورقة.. ماذا ستقول له.. وكيف ستفسر له الأمر؟ إنها هي نفسها لا تعرف شيئاً.. ولا تدري أعماد جاد في كلماته أم يهزل معها.. ولكن!.. فوجئت بباب الحجرة يفتح ووالدها واقف بالباب ينظر إليها بعتاب..

تلجلجت، فلم تدر ماذا تقول؟ بادرها قائلاً:

ـ انتظرتك طويلاً في المكتب ولم تحضري.. ماذا حدث يا هدى؟.

نكست رأسها إلى الأرض بخجل والدنيا تدور بها.. فلم ترد..

تكلم والدها:

ـ إذن فأنت تعرفين لماذا أريدك؟ حسناً.

وأخرج من جيبه الورقة وتقدم حتى وضعها أمام عينيها ودارت الدنيا برأسها.. وصعد الدم ليلون وجنتيها بلون أحمر قان..

أشاحت بوجهها، وكأنها تهرب من شبح يطاردها..

ابتسم الأب بمرارة وهو يسأل:

ـ هدى.. أجيبيني بصراحة.. ما علاقتك بعماد؟

تدافعت الكلمات إلى شفتيها فهتفت دون وعي..

ـ لا لا يا أبي.. أنا.. أقصد.. ليس.. إنني لا أعرفه.. لا أعرفه إطلاقاً يا أبي..

مد لها الورقة.. تناولتها منه بأصابع مرتجفة.. نظرت إليها بتركيز شديد، وكأنها تقرأها للمرة الأولى.. أحست بيد والدها تربت على كتفها بحنان ثم قال:

- أنا أعرفك جيداً يا هدى.. فأنت ابنتي الكبرى العاقلة.. أعرف إنك لا يمكن أن تخطئي أبداً.. ولكن بالطبع.. أنت تعرفين يا هدى الطريق الصحيح.. أتفهمين يا ابنتي..

نظرت هدى إلى وجه والدها المنهك.. ثم هتفت بقوة مفاجئة:

- نعم.. نعم أفهمك يا أبي.. ولكن صدقني لقد وصلتني هذه الورقة اليوم فقط.. أوصلها لي أخي ياسر.. إنني..

قاطعها والدها بصوت حنون:

- هدى.. أنا لم أطلب منك تبريراً.. كل ما أردت قوله هو أنني أثق فيك.. وأثق في حسن تصرفك.. أليس كذلك يا هدى؟.

همست هدى وكأنها تكلم نفسها:

- بلى.. بالتأكيد يا أبي.. بالتأكيد..

* * *

تمخضت الأيام التالية عن مفاجأة غريبة.. هزت كيان هدى وجرحتها في الصميم.. وأنستها ذكريات حبها القديم المتجدد..

ففي أحد الأيام، بينما كانت هدى عائدة من زيارة صديقتها فاطمة، لمحت سيارة غريبة أمام باب البيت، انقبض قلبها بشدة، فالسيارة ليست غريبة عليها.. إنها تعرفها حق المعرفة.. فقد ركبتها أياماً كثيرة.. أياماً حلوة تلك التي قضتها إلى جانب قائد هذه السيارة..

هتفت بذهول..لا..لا.. غير معقول بل مستحيل..

وما إن دلفت إلى البيت حتى كان المستحيل واقفاً أمامها بشحمه ولحمه.. إنه زوجها السابق سالم.. ابتسم بفرحة طفولية وهو يقترب منها.. قال لها بلهفة وهو يسلم عليها:

- أهلاً هدى.. لقد اشتقنا إليك كثيراً..

أشاحت بوجهها باشمئزاز.. ثم نظرت لوالدها القابع في مقعده بجوار النافذة قبل أن تقول لسالم:

- مبروك زواجك.. أتمنى لك السعادة..

وقبل أن تستدير لتذهب إلى حجرتها.. سمعت صوته المضطرب وهو يقول:

- أبداً ليست هناك سعادة.. لقد.. لقد طلقتها..

استدارت هدى لتواجهه بوجه ممتقع.. فاستطرد في كلماته الحزينة..

- إنها لا تناسبني.. ثم إنني.. إنني لم أحبها أبداً.. كان الأمر مجرد.. مجرد انتقام.. وإنني...

قاطعته هدى بصوت حاد:

- وماذا تريد الآن؟.

نهض والدها من مقعده وخاطب هدى قائلاً:

- هدى.. كفي عن هذا.. واذهبي إلى حجرتك.. إن سالم ضيف علينا..

انصرفت هدى متجهة إلى حجرتها بعد أن رمقت "سالم" بنظرة إحتقار إهتز جسده لها..

التقت بأمها في الممر المؤدي إلى حجرتها..

همست الأم:

- أرأيت يا هدى.. لقد أتى سالم راكعاً على على قدميه يستجدي حبك.. ويريدك أن تعودي إليه..

بمرارة شديدة ابتسمت هدى وهي تقول:

- وهل يظن بأنني سأنسى كل شيء وسأعود إليه بهذه السهولة.. ثم لماذا يأتي هكذا فجأة.. لماذا لم يتصل قبلها عن طريق الهاتف..

تكلمت الأم بصوت خافت:

- لقد أخبر والدك بأنه خشي أن نصده على الهاتف.. فقرر أن يواجهنا مباشرة..

هتفت هدى:

- يا للشجاعة.. وهل يعتقد أنه بهذا العمل يجبرني أن أعود إليه؟

رق صوت الأم وهي تهمس:

- هدى فكري بالأمر.. إن سالم يحبك كثيراً..

ضحكت هدى بسخرية مريرة وهي تقول:

- يحبني؟ تقولين يحبني يا أمي.. إن الذي يحب لا يكذب ولا يغدر.. ولا يخون.. لذلك لن أعود لرجل أناني مغرور حتى ولو سقط صريعاً بين قدمي..

هزت الأم كتفيها بيأس ثم قالت:

- سأذهب الآن أعد العشاء.. هيا بدلي ملابسك ثم الحقي بي..

دخلت هدى حجرتها.. وقد هزتها مقابلتها مع سالم.. هزتها حتى أعمق أعماقها.. لقد تغير كثيراً منذ رأته آخر مرة.. لقد نحل جسمه.. وازداد وجهه ذبولاً واصفراراً.. وعيناه العسليتان قد غشيتهما غلالة رقيقة من الدموع.. إنه فعلاً يحبها، ولكن هل تعود إليه؟ هل تعود إليه بعد أن أذلها.. وأهانها.. وداس على كرامتها بقدميه القاسيتين.. والآن وبعد أن أذاقها مر الهوان وعذاب اليأس يعود طالباً ودها.. يعود وبريق الأمل يضيء وجهه الشاحب.. هل تغلق الباب في وجهه لينطفيء الأمل ويسوّد الظلام مستقبلها المجهول من جديد؟ وتترك للزمن مهمة لعق جراحها.. أم تفتح الأبواب أمامه على مصرعيها.. لتدخل معه رياح الشك وعواصف الجنون.. وسموم الغيرة؟

لقد تلاشت كل همومها ولم يتبق لديها سوى مشكلة واحدة.. تفتح أو لا تفتح..

ولكنها استدارت بعنف لتواجه صورتها الماثلة أمامها في المرآة.. راعها الحزن القابع في عينيها والحيرة التي تلون وجهها بلون العذاب.. والجراح التي رزئت بها أيامها وامتصت شبابها الغض وحيويتها الدافئة..

حتى شعرها مسح الزمن عليه بيده التي لا ترحم، واختبأ في طياته العذاب فتخللته بضع شعيرات بيضاء وهي بعد لم تتخط السادسة والعشرين من عمرها..

أذهلتها هذه الحقيقة.. فزمت شفتيها بغضب وقد عقدت العزم على أن تنتقم.. نعم تنتقم منه.. ممن أذلها وهي عزيزة.. وأهانها وهي كريمة.. ولفظها كالنفايات بعد أن تعلق قلبها به.. والآن.. بعد أن كادت الجراح تندمل.. وأوشكت النفس أن تبرأ من المرض.. أتى إليها لينكأ الجراح ويفتح صفحة النسيان..

ضربت بقبضتها منضدة الزينة وهي تهتف بقوة:

- يجب أن ألقنه درساً لا ينساه.. يجب أن أعرفه من هي هدى التي لا يعرفها..

رفعت رأسها بكبرياء، ومضت تهبط درجات السلم، وما إن اقتربت من حجرة الجلوس حتى سمعت صوت سالم وهو يقول:

- إنني يا عمي أحب هدى.. ولم أحب في حياتي غيرها.. أبداً.. إنني أتمنى أن توافق على أن تعود إلي..

تنحنح والدها.. وقبل أن يرد على سالم.. دخلت هدى كالعاصفة.. بنبرات غاضبة قالت لسالم:

- أبي لا شأن له بأمري.. إذا كان لديك أي كلام وجهه لي..

شحب وجه سالم.. وهربت الكلمات من لسانه، فلم يدر ماذا يقول.. ولكن هدى تابعت قائلة:

- طبعاً أي كلام في أي موضوع سوى موضوع عودتي إليك.. فإنه من رابع المستحيلات..

وقبل أن يفيق سالم ووالد هدى من بغتة المفاجأة استطردت هدى:

- أرجو أن تنسى موضوع عودتي إليك مرة أخرى.. بتاتاً.. لأنني من الممكن أن أتزوج شحاذاً ولا أعود إليك.. أبداً.. أفهمت؟

انتفض سالم والغضب يملأه كبركان يوشك على الإنفجار.. وقبل أن يخرج لحق به والد هدى وحاول أن يستبقيه إلا أن سالم رفض البقاء وأسرع خارجاً وكأنه يهرب من نار توشك أن تحرقه..

التفت والد هدى إليها غاضباً.. وقال لها بحنق:

- أهكذا تتصرف بنات العائلات؟ أهذه أخلاق بنت الناس.. تطردينه.. تطردين ابن عمك يا هدى وأنا واقف أمامك..

ردت هدى بنبرات حزينة..

- أنا لم أطرده يا أبي.. ولكنني أردت إنهاء موضوع عودتي إليه..

إنني لا أقبل أبداً يا أبي أن يعاملني كنعجة تباع في سوق الخراف.. إذا أراد اشتراها وإذا لم تعجبه أعادها مرة أخرى.. كلا يا أبي.. إنني فقط أردت أن ألقنه درساً لا ينساه.. وأن أعيد ولو جزءاً بسيطاً من كرامتي المهدورة التي استباحها هو وأهله..

أطرق الأب برأسه مفكراً.. ثم قال بصوت هادىء:

- ولكن.. مهما يكن.. ليس من اللائق أن تعامليه بهذا الشكل..

لقد تجشم عناء السفر وقطع المئات من الكيلو مترات.. وفي الآخر تهينيه هكذا، وكأنه ليس ابن عمك.. وكأنه ليس ضيفك..

تلألأت الدموع في عيني هدى.. ولم تدر أهي دموع الندم.. أم دموع الإنتصار..

ارتفع صوت نشيجها المكتوم.. لينهض والدها متثاقلاً ويحيطها بذراعيه وهو يهمس:

- لا عليك يا ابنتي.. إنسي كل شيء.. وافتحي صفحة جديدة من صفحات حياتك.. إنك.. وفجأة.. قاطعته أم هدى صارخة بفرح دون أن تلمح دموع ابنتها:

- أبو يوسف.. هدى.. إن يوسف قادم غداً هو وتهاني.. لقد حادثتهما منذ قليل.. وأخبرني يوسف بأنهما قادمان الساعة السادسة من مساء الغد.. آه.. كم أنا مشتاقة لك يا يوسف..

غمز الأب ضاحكاً وهو يقول:

- الآن ابتدأت فعلاً تصبحين حماة.. كان اللّه في عون تهاني..

انسحبت هدى بصمت.. ومشت بهدوء نحو حجرتها لتواجه أحزانها وحدها..

* * *

في مطار الكويت الدولي وقفت هدى إلى جوار والدها يرقبان وصول الطائرة القادمة من لندن.. تخلفت الأم ولم تحضر لاستقبال يوسف بالمطار.. قالت لهدى وهي مضطربة:

- سأنتظرهما في البيت أفضل..

ضحكت هدى لوالدتها وهي تقول:

- كما شئت يا أمي.. ولكنني أتمنى رؤية يوسف فور عودته من رحلة شهر العسل..

انتبهت هدى على صوت امرأة تحييها.. التفتت لتجد أم تهاني وزوجها وولدهما عماد يقفون في مواجهتها.. اضطربت لرؤية عماد واهتزت رموش عينيها، ولكنها لم تعره انتباهاً..

اندمجت بكليتها مع أمه.. وتبادلت معها حواراً طويلاً عن أحوال السفر وأخبار المجتمع..

أخذت هدى ترمق بطرف عينيها "عماد" وهو يتحدث مع والدها ووالده..

ضبطها عماد وهي تنظر إليه.. فاحمر وجهها بشدة وأشاحت به بعيداً عن نظراته.. وأنقذها صوت الميكرفون يعلن عن وصول الطائرة القادمة من لندن..

مضت دقائق قبل أن يلمحوا يوسف وتهاني يلوحان لهم بأيديهما..

همست أم تهاني لهدى بصوت قلق:

ـ ألم تلاحظي معي أن تهاني شاحبة قليلاً؟

ابتسمت هدى وهي تقول:

ـ كلا يا خالتي.. أنت واهمة.. إن تهاني في أتم صحة وعافية وتبدو كملكات الأساطير..

مصمصت الأم بشفتيها بعدم إقتناع.. حتى التقت بابنتها وضمتها إلى صدرها بشوق حقيقي..

انتقلت بهم السيارة إلى بيت والد هدى واستقبلت أم يوسف ابنها بفرحة صاخبة..

قرصته في خده برقة وهي تقول:

ـ يبدو عليك التعب.. ولكن هذا أفضل حتى تخلد إلى النوم مبكراً..

قهقه أبو عماد بصخب وهو يقول:

ـ يا للأمهات كم هن قلقات دائماً.. هذه تعد عظام ابنتها لترى كم عظمة نقصت.. وهذه تقيس ولدها.. هل طال أم قصر؟

انفجر الجميع بالضحك..

وفي غمرة اهتمام الأهل بتهاني ويوسف ووسط التعليقات الضاحكة.. أحست هدى بعينين تحدقان بوجهها باهتمام شديد..

حاولت ألا تلتفت لترى مصدر النظرات رغم معرفتها الأكيدة بصاحبها.. ولكن وجهها اشتعل تحت حرارة النظرات لتلتقي بعيني عماد وفيهما ألف سؤال وسؤال..

نهضت هدى وانسحبت بصمت بعد أن شدت على يد يوسف وهي تقول:

ـ ألف مبروك مرة أخرى.. وأتمنى لك أنت وتهاني كل السعادة..

ضحك يوسف وهو يقول:

ـ السعادة فقط؟

ابتسمت هدى بعفوية وهي تقول:

ـ السعادة والحب والأطفال.. ارتحت الآن؟

هز يوسف رأسه.. وشيعها بضحكة كبيرة..

وما أن أغلقت على نفسها باب حجرتها حتى أخرجت رسالة عماد من تحت وسادتها وأخذت تقرأها للمرة الألف.. وقلبها يهتز مع اهتزاز السطور تحت عينيها..

وقبل أن تغرق في نشوة الحلم الجميل.. أفاقت على طرقات هائلة على باب حجرتها.. تهاوى قلبها بين قدميها وهي تفتح الباب.. قالت والدتها بهلع:

ـ جابر.. لقد أصيب بتشنج حاد ونقله يوسف إلى المستشفى..

فتحت هدى عينيها على سعتهما وكأنها غير مصدقة هذا الذي تقوله أمها.. صحيح أنها نسيت جابر في هذه الفترة بسبب دوامة المشاكل التي اجتاحتها ولكن.. ولكنها لم تعتقد أبداً بأنها من الممكن يوماً أن تفقده..

صرخت في وجه أمها بدون وعي:

ـ متى حدث هذا؟

حاولت الأم أن تكون هادئة رغم ارتعاش يديها ثم قالت:

ـ منذ قليل.. ونحن جالسون في بهو المنزل.. أتت الخادمة لتخبرني بأنها وجدت جابر يهتز بعنف ولا يرد عليها.. فأسرعنا إليه.. وأخذه يوسف ووالدك وتهاني إلى المستشفى..

استطردت الأم بعد أن رأت الشحوب الشديد الذي علا وجه ابنتها وكأنها على وشك الإغماء..

ـ لا تخافي يا حبيبتي.. كثير من الأطفال يصيبهم هذا التشنج ويتماثلون للشفاء بسرعة..

تمالكت هدى نفسها ثم سألت أمها بقلق:

ـ هل تعتقدين يا أمي أنه مصاب بالصرع؟

نفت الأم هذا بشدة وهي تقول:

ـ كلا يا هدى.. قلت لك بأن كثيراً من الأطفال يصابون بالتشنج حين تشتد بهم الحمى فقط لا غير، وجابر مصاب بحالة زكام بسيطة كما تعرفين.. اطمئني يا حبيبتي سيعودون الآن..

نزلت هدى إلى الدور الأرضي من الفيلا.. وأخذت تروح وتجيء بعصبية شديدة.. وحاولت أكثر من مرة أن تتصل بالمستشفيات لتسأل إلى أي مستشفى هم ذهبوا..

حتى دخل يوسف ووالدها.. صرخت برعب حقيقي:

ـ أبي.. أين جابر؟

ابتسم والدها وهو يقول:

ـ ما بك منفعلة هكذا.. هدئي من روعك.. وتمالكي أعصابك.. إنه في المستشفى مع تهاني.. ليجروا له بعض التحاليل..

ابتدأ العرق يتصبب من جسد هدى بغزارة..

قال لها يوسف:

ـ هيا معي الآن إلى المستشفى.. لآخذ زوجتي وأضعك مكانها..

لم تبتسم هدى، إنما هرعت إلى الدور العلوي لتبدل ثيابها.. ثم خرجت مع يوسف إلى المستشفى.. وفي الحجرة رقم ٤٠٦ في مستشفى الأطفال رأت ابنها جابر يرقد على سرير أبيض.. تخترق جلده الصغير الإبر المغذية..

أسرعت إليه كي تحتضنه بحب ولهفة.. منعها الطبيب بحزم وهو يقول بصوت خافت:

- أرجوك.. ممنوع.. إنه لم ينم إلا قبل لحظات..

هتفت بصوت باكٍ:

- أنا أمه..

ابتسم الطبيب بتشجيع وهو يقول بالصوت الخافت نفسه:

- أهلاً وسهلاً.. لكن أرجوك دعيه يستريح قليلاً، فهذه الأزمة قد أتعبته كثيراً..

أردف قائلاً بعد هنيهة صمت:

- لا تخافي.. يمكنك غداً صباحاً أن تصطحبيه معك.. ولكن يجب أن يبقى الليلة في المستشفى حتى لا يعاوده التشنج مرة أخرى..

تهالكت هدى على أقرب مقعد بعد خروج الطبيب.. نهضت تهاني من على المقعد المجاور لسرير جابر ثم انحنت أمام هدى ممسكة بيديها وهي تهمس:

- لا خوف عليه يا هدى.. إطمئني.. فالطبيب يقول بأن التشنج حدث له من ارتفاع درجة الحرارة المفاجيء وسيخرج غداً صباحاً من المستشفى..

ابتسم يوسف وهو يقول:

- هيا يا تهاني.. حرام عليك يا هدى.. لا تنسي بأننا ما زلنا في شهر العسل.. دعينا نذهب..

ابتسمت هدى برقة وهي تقول:
ـ شكراً يا تهاني لقد أتعبناك معنا.. وداعاً يا يوسف.. أراكما غداً إن شاء اللّه..

غمغمت تهاني بكلمات مبهمة وهي تغادر المستشفى في صحبة زوجها..

* * *

وقفت هدى في حجرتها مرتبكة غاية الإرتباك.. تدور في الحجرة كأسد حبيس قفصه.. حتى فتح باب حجرتها فجأة.. التفت بقوة لتجد أخاها فيصل مقتحماً حجرتها.. صرخت فيه قائلة:
ـ ألا تعرف الأدب.. ألا تعرف كيف تطرق الباب قبل أن تدخل.. إفرض أنني أر..

قاطعها بسرعة:
ـ أمي قالت بأن أخبرك بأن فاطمة تريدك على الهاتف.. هل هذا يحتاج لطرق على الباب..

رفعت السماعة وهي تقول له بلهجة حادة:
ـ حسناً هيا أغرب عن وجهي..

ثم ابتسمت وهي تقول:
ـ أهلاً فاطمة.. كيف حالك؟.
ـ الحمد للّه بخير.. كيف جابر الآن؟ إن شاء اللّه بخير..

تنهدت هدى قبل أن تجيب:
ـ إن شاء اللّه سيكون على ما يرام.. ولكنه بعد أن خرج من المستشفى يبدو ضعيفاً متهالكاً..

قالت فاطمة بسخرية:
ـ بالطبع سيبدو ضعيفاً.. وهل تريدينه أن يشفى فجأة.. كل شيء يجب أن يأخذ وقته.. ألا تذكرينني بعد أن خرجت من المستشفى بعد الإجهاض

جلست طريحة الفراش شهرين حتى تماثلت للشفاء.. فما بالك بطفل صغير.. دعي القلق يا هدى، فإن جابر بخير إن شاء اللّه..

ترددت هدى قبل أن تقول:

- ولكن.. ولكن يا فاطمة ليس هذا فقط هو ما يقلقني..

- إذن ما بك يا هدى..؟

همست هدى:

- سأقول لك فيما بعد..

صرخت فاطمة:

- لقد أقلقتني يا هدى.. لن أذوق طعم الراحة قبل أن تقولي لي عما يشغلك..

بلسان متلعثم قالت هدى:

- إنه.. إنه.. إنه عماد..

كتمت فاطمة شهقتها ثم قالت بصوت مذهول:

- ماذا تقولين؟ عماد.. ما به؟

همست هدى وكأنها تخاف أن يسمعها أحد:

- أنت معذورة في دهشتك يا فاطمة.. لأنني لم أخبرك منذ البداية بما حدث.. فقد أشغلتني دوامة الحياة.. فمنذ أسابيع بعث لي عماد برسالة يبثني فيها حبه ويطلب ودي.. ثم..

قاطعتها فاطمة بفضول:

- وماذا فعلت؟.

قالت هدى:

- انتظريني حتى أكمل لك بقية الحكاية.. لم أرد عليه طبعاً.. وتجاهلت أيضاً نظراته المعبرة.. فأنت تعرفين يا فاطمة إنني مطلقة مرتين..

ويجب ألا تهزني مثل هذه الأشياء..

هتفت فاطمة وهي تستعجلها:

ـ ثم ماذا؟ أحكي..

أجابت هدى..

ـ أبداً .. طلبني اليوم على الهاتف.. وما إن سمعت صوته حتى سارعت بإغلاق السماعة..

ما رأيك هل ما فعلته هو الصح أم لا؟ أخبريني فإن ضميري يعذبني..

صمتت فاطمة لعدة ثوان وكأنها تفكر ثم هتفت:

ـ لا يا هدى.. أنت لست مخطئة.. بالعكس بل أصبت.. وصدقيني لو كان يحبك صدقاً فهو لن ييأس.. لن ييأس أبداً وسيحاول بكل الطرق أن يكسب ودك..

تنهدت هدى بارتياح وهي تقول:

ـ الحمد للّه.. لقد بعثت في نفسي الإطمئنان.. ولكن ياه.. لقد عقلتي يا فاطمة.. كنت في السابق تنصحينني بالعكس..

ضحكت فاطمة وهي تقول:

ـ رغماً عني سأعقل.. وهل هناك أكثر من بيت وزوج وطفلة يعقلون أي مجنون..

على العموم أتمنى لك السعادة يا هدى.. وداعاً الآن.. فزوجي سيحضر بعد قليل..

همست هدى وخيالها يعكس أحلامها:

ـ وداعاً يا فاطمة.. مع السلامة..

بعد أن أغلقت هدى سماعة الهاتف.. وقفت أمام دولاب ملابسها تنتقي ماذا سترتدي مساء اليوم.. فهي مدعوة إلى وليمة في بيت جارهم "أبو عماد" بمناسبة عودة يوسف وتهاني من لندن..

أخرجت فستانها الوردي وأخذت تتأمله بعين فاحصة.. ولكن سرعان ما أعادته إلى مكانه من جديد وهي تهمس لنفسها:

- لا.. إنه مكشوف أكثر مما يجب.. المفروض أن أختار ثوباً أكثر حشمة لتراني أم عماد لائقة لابنها..

اختارت ثوبها الأسود البسيط.. الذي تزينه أزرار ملونة جميلة..

وفي المساء كانت تتألق كعادتها دائماً في كل حفل في ثوبها الأسود البسيط وشعرها المعقود فوق رأسها كتاج أسود حريري..

ابتسمت لها أم عماد برقة.. وأجلستها إلى جوار نورة وتهاني شقيقتي عماد اللتين أخذتا يرمقانها بإعجاب شديد..

همست لها نورة قائلة:

- تبدين رائعة الجمال الليلة يا هدى..

تمتمت هدى:

- وأنت أجمل.. شكراً لك..

كانت الحفلة نسائية خاصة.. ولكن ما إن ذهبت هدى إلى المطبخ مع تهاني للإشراف على إعداد الطعام حتى دخل عماد فجأة..

وقف لحظات يحدق بهدى مبهوراً بجمالها.. إرتبكت هدى، فتحركت شفتاها بدون صوت لتقول كلاماً ليس له معنى.. ثم أسرعت خارجة من المطبخ لتسمع صوت عماد واضحاً وهو يخاطب تهاني:

- هل هذه هي هدى؟ إنها تبدو ملكة جمال..

ثم دخلت حجرة الجلوس كي لا تسمع بقية كلماته.. ولكنها لم تكن تستمع للثرثرة التي تدور بين النساء.. كان قلبها ينبض بقوة، وكأنه صدى لأحاسيسها المضطربة داخلها..

مس الحب كيانها المعذب فحولها إلى إنسانة أخرى.. ماض قديم.. عادت مشاعرها تحلق بها في سماء الأحلام..

عادت ست سنوات إلى الوراء.. إلى أيام المراهقة.. إلى العذاب الممتع والخيال المعذب.. إلى دنيا الأحلام.. حيث كانت تراقب "عماد" من خلال النافذة بطلته البهية وقوامه الممشوق وهو ذاهب إلى كليته.. وحين

تترقبه عند العودة.. وعندما تسهر تنتظر عودته كل مساء إلى منزله.. فتتوسد صورته وتنام.. تنام ملء جفنيها.. عادت إلى ذاكرتها صورتها وهي تكتب له خطاباً معطراً محشواً بكلمات الحب الطاهر..

تذكرت دموعها حين يسافر إلى خارج البلاد.. وهي تبكي على كلمات أغنية حزينة.. حبها كان يعذبها، لأنه حب من طرف واحد.. حب عقيم.. مريض.. محكوم عليه بالإعدام..

ولكن ها هو ينبض من تحت الرماد ليعود قوياً.. أقوى مما كان.. وأجمل.. وأروع.. وسالم.. وقف هذا الإسم في ذهنها، كحجر يعترض النهر.. فوقف سيل ذكرياتها المنهمر.. إنها تشعر بألم عميق.. كجرح لم يندمل..

سالم.. إنه مجرد خطأ في حياتها.. خطأ ارتكبته دون أن تدري.. صحيح أنها أحبته يوماً، ولكن هذا الحب قُتل.. قُتل على يديه هو.. على يدي سالم.. فالحب يحتاج إلى رعاية واهتمام لينمو بقوة.. واعتزاز.. وأي شيء يقتل الحب.. الملل.. الخيانة.. الكذب.. ولكن ليس أي حب..

أفاقت هدى من أفكارها على سؤال من جارتها:

ـ وأنت يا هدى.. ما رأيك؟.

تلعثمت هدى.. وتلجلجت في الكلام.. وقد أدركت أن جميع الحاضرات ينظرن إليها بترقب.. فأحست بالخوف يتسلل إلى أعماقها.. يجب ألا يعرفن بأنها كانت تفكر.. وأنها في دنيا أخرى بعيداً عن ثرثرتهن الفارغة.. فالتفكير ممنوع على المطلقات..

بذكاء شديد ابتسمت لجارتها وهي تقول:

ـ ولكن.. هذا موضوع تختلف فيه وجهات النظر.. وأنا أفضل أن أكون حيادية..

ضحكت جارتها قائلة:

ـ أما أنا فمتعصبة شديدة التعصب.. إذا فكر زوجي بالزواج من أخرى فسأطلب الطلاق فوراً..

صرخت أخرى قائلة:

ـ أنا سأتركه يتزوج بكل بساطة.. ولكنه منذ تلك اللحظة لا شأن له بي أبداً..

هاجمتها نورة شقيقة عماد قائلة:

ـ ولكنك يا نوال لم تتزوجي بعد..

ابتسمت نوال ثم قالت ضاحكة:

ـ أنا أتكلم عن نفسي في المستقبل..

هتفت أخرى ضاحكة:

ـ ولماذا أنت متشائمة إلى هذه الدرجة؟ قال الرسول (صلى اللّه عليه وسلم) تفاءلوا بالخير تجدوه..

ابتسمت هدى معجبة بذكائها.. فقد أنقذت نفسها بأعجوبة.. وإلا لأصبحت كلقمة في أفواه هؤلاء النسوة اللاتي لاهم لهن إلا تناقل أخبار الناس وتسليط الأضواء على حياتهم..

إنها ما زالت تذكر حديث المجتمع عن زميلتها في الجامعة.. لأنها فقط مطلقة.. فإذا صمتت قالوا بأنها معقدة من الرجال.. وإذا تكلمت قالوا بأنها فتاة منحلة.. وإذا جلست تفكر قالوا بأن في حياتها رجلاً.. وإذا طلقت المجتمع وقبعت في بيتها.. وقفلت على نفسها الأبواب والنوافذ ونزعت سلك الهاتف.. لتهرب من ألسنتهم.. قالوا بأنها تخطط لجريمة ما.. يا لهؤلاء الناس.. كم هم حمقى!.

ولدهشتها الشديدة سألتها جارتها للمرة الثانية:

ـ بماذا تفكرين يا هدى؟

صعقت هدى.. ولكنها أجابت بسرعة:

ـ أنا؟.. إنني لا أفكر بشيء.. فقط أتابع حديثكن..

* * *

وقفت هدى إلى جوار الطبيب حتى إنتهى من فحص جابر.. بادرته قائلة بلهفة:

ـ هل هو يتعافى يا دكتور؟.

طمأنها الطبيب بقوله:

ـ بالطبع.. إطمأني.. ما حدث كان مجرد عارض مرضي.. إنتهى وإن شاء اللّه لن يعود.. ولكنني أردت أن أستفسر.. هل ما زال جابر يتردد على الدار ويمارس التمارين المطلوبة؟.

بدهشة أجابت هدى:

ـ نعم يا دكتور.. ولكن لم السؤال؟

تنحنح الطبيب قبل أن يجيب:

ـ إن حالته الآن في تحسن مستمر.. ولكنني أفضل أن يقيم في المستشفى..

قاطعته هدى بحدة:

ـ دكتور.. ما دمت تقول بأنه يتحسن.. إذن ما الداعي لإقامته الدائمة؟.

ابتسم الطبيب وهو يجيب:

ـ أنا لم أقل إقامة دائمة.. إنما هي فترة محددة فقط حتى يكتمل شفاؤه..

أحنت هدى رأسها وكأنها تفكر ثم همست بصوت خافت:

ـ ولكن.. أقصد يا دكتور إنه من الصعب أن يتقبل جابر الفكرة.. إنه لا يطيق أن أغيب عنه ولو نصف يوم.. أتصدق أنني أحياناً أتغيب عن جامعتي ومحاضراتي رغم أنني في السنة النهائية لمجرد أنه طلب مني ذلك.. إنني..

ثم خنقتها العبرات فلم تكمل جملتها.. جاءتها كلمات الطبيب كأيد حانية.. رقيقة.. تربت على كتفها بحنان:

ـ إنني أفهم كل ذلك وأقدره.. ولكن جابر لن يضيع.. إنه في الدار.. ومن الممكن أن تزوريه بشكل دائم وتأخذيه أيام العطلات.. وأحب أن أفهمك بأن إقامته هذه ليست دائمة.. إنما فقط لأجل معين حتى نؤهله لحياته المقبلة.. وربما.. ربما استطاع أن يتعافى خلال وجوده معنا..

فكري بالأمر، وأنا في إنتظار قرارك.. وكله في النهاية لمصلحة جابر..

نهضت هدى بتثاقل وكأنها تجر قدميها جراً.. وكأن هناك عمراً جديداً أضيف على عمرها.. تعاونت مع الطبيب على وضع جابر في عربته المتحركة.. ثم سارعت وكأنها تتحدى به الزمن.. وتتحدى الظروف.. وتتحدى حتى نفسها..

"سيعيش جابر رغم كل شيء" هتفت لنفسها بقوة، وقد اتخذت قرارها من وراء ستار دموعها الحزينة يجب أن تودعه الدار من أجله هو أولاً.. ثم يأتي بعد ذلك أي شيء.. أعدت نفسها لإقناع والديها بقرارها هذا.. رغم أنها تعرف رد الفعل الذي سيحدث لهما عند سماعهما له.. سيثور والدها ويتهمها بالأنانية.. وستبكي أمها وتدعي بأنها قاسية القلب.. وسيقاطعونها إخوتها.. ولكن ماذا تفعل؟ إنه فلذة كبدها.. وقطعة من أحشائها.. وتتمنى له كل الخير والسعادة..

عندما دخلت هدى إلى البيت ألفت والدتها جالسة تشاهد برامج التلفزيون..

حيتها الأم بابتسامة وهي تسأل:

ـ ماذا قال لك الطبيب يا هدى بخصوص جابر؟

ترددت هدى قبل أن تقول:

ـ إنه.. إنه أمر سيحزنك بلا شك.. لقد سألني الطبيب أن أدخل جابر الدار.. أقصد دار المعاقين..

شهقت الأم بفزع وهي تقول:

ـ ماذا؟ دار المعاقين.. ولمَ؟

شبكت هدى يديها بعصبية.. ثم قالت:

ـ أقنعني الطبيب بذلك يا أمي.. قال بأن من الخير له أن يدخل الدار فترة معقولة ليساعدوه على أداء التمارين الصعبة.. وربما.. ربما يتعافى بعد ذلك..

أطرقت الأم برأسها مفكرة.. ثم قالت:

ـ ولكن يا ابنتي.. إن جابر لن يتقبل هذا.. أنت تعرفين تعلقه الشديد بنا.. ثم إنه والحمد للّه لا يحتاج إلى أي تدريبات.. إنه يجلس بشكل طبيعي للغاية.. ولا نريد من اللّه أكثر من هذا.. ودعينا من ترهات هؤلاء الأطباء.

اغرورقت عينا هدى بالدموع وهي تقول لأمها:

ـ يجلس.. يجلس فقط يا أمي؟ طفل في الخامسة لا يمشي ولا يتحرك ولا يلعب كبقية الأطفال تعتقدين أنه ليس بحاجة للعلاج.. يجب يا أمي أن نحاول بقدر استطاعتنا.. ولو أدى ذلك إلى حرماننا منه فترة مؤقتة.. لن نيأس من رحمة اللّه.. وسنطرق كل أبواب الأمل لنريح ضميرنا على الأقل..

ـ أمي.. حاولي إقناع أبي بهذا الموضوع..

صرخ جابر فرحاً عندما لمح ياسر.. خاله الصغير.. الذي أسرع إلى أمه قائلاً:

ـ لقد عاد أبي يا أمي.. عاد ومعه كيس كبير رفض أن يطلعني على محتواه.. أرجوك يا أمي دعيه يفتحه لي.. ها هو دخل..

دخل الأب شامخاً.. بشوش الوجه.. وبعد أن ألقى التحية.. قال لهدى وابتسامة كبيرة تتوج وجهه المرح..

ـ هدى.. أنتظرك الآن في حجرة المكتب.. هناك موضوع أريد أن أحدثك فيه..

تطلعت الأم إلى الكيس الذي يحمله الأب بفضول ثم قالت له بمرح:

ـ أعتقد بأن هذا الكيس لهدى.. أليس كذلك؟

ابتسم الأب وهو يقول:

ـ بلى، تقريباً..

ثم وجه كلامه لهدى:

ـ هيا يا هدى.. تعالي معي..

نهضت هدى ببطء، وقد نسيت موضوع جابر.. أشغلها تفكيرها بفرحة أبيها الكبرى.. ونظراته التي تطفح بالبشر.. ترى ماذا يريد أن يزف إليها من أخبار؟ وما هذا الكيس الكبير الذي يحمله معه؟ ترى ما هو محتواه؟.

نظرت إلى أبيها كأنما تستنشق أفكاره.. من خلال منضدة المكتب الكبيرة التي تفصل بينهما..

ولكن الأب سكت.. وطال سكوته.. حتى قال لها أخيراً:

ـ هدى.. أريد أن أعرف.. إذا فرض وتقدم لك شخص يريد الزواج منك.. ما ردك؟

ارتبكت هدى ولم تدر بماذا تجيب.. عرض للزواج؟ ومن الذي يعرض عليها الزواج؟ عماد أو أحد غيره؟ ولكن من يكون؟

أحمر وجهها بشدة.. ولكنها ملكت زمام نفسها وبادلت سؤال والدها بسؤال:

ـ ومن هو الذي تقدم لخطبتي يا أبي؟

أجاب والدها بمرح:

ـ أنا الذي سألتك أولاً.. لو تقدم شخص للزواج منك هل تقبلين أم ترفضين؟.

تلعثمت هدى قبل أن تقول:

ـ هذا يتوقف على.. الشخص نفسه.. ومن يكون؟.

ابتسم والدها بصبر وتفهم ثم قال:

ـ إني أسألك عن مبدأ الزواج بحد ذاته بغض النظر عن الشخص المتقدم للزواج منك.. هل تقبلين بمبدأ الزواج أم لا؟

أحست هدى بحرج بالغ لصراحة والدها.. فلم ترد.. أطرقت برأسها في صمت ترقب طرف حذائها..

قطع الأب الصمت بقوله:

ـ لقد خطبك عماد مني.. هل توافقين؟

اضطرمت الأحاسيس في أعماقها.. وجاشت عواطفها بلفحة حب حارة.. متدفقة.. قوية.. انطلقت لتروي الظمأ الكائن في أعماقها.. عماد؟.. يطلب الزواج منها؟ وبعد كل تلك السنوات؟ إذن هو جاد في عرضه.. إذن هو فعلاً يحبها كل الحب.. ولكن.. رباه.. لماذا تأخر هذا الحب كثيراً.. لمَ لم يأت في موعده؟ لوفر كثيراً من العذاب.. وكثيراً من الجراح.. وكثيراً من الآلام.. لقد جاء في غير موعده.. وكأنه مسافر فاته القطار.. فعانقه الندم حتى الهوان..

لم يخامرها الشك أبداً في قوة حبه.. ولكن كيف تلتقي به بعد كل تلك السنوات؟ وفي قلب كل منهما جرح لم يندمل.. وعذاب لم يحتمل.. ونفس ضعضعتها الأحزان..

كيف يلتقيان؟ وفي أعين كلاً منهما صور لحب لم يكتمل.. وسنوات من الضياع.. وطفولة بريئة معذبة..

كيف يلتقيان؟ وبينهما بحور من الزمن.. وأنهار من البعد.. ومحطات من التعاسة..

ولكن وقف المارد في أعماقها منتصباً أمامها كالقدر.. يتحداها بقوة الحب الذي لا يموت.. إنها لن ترفض.. ولن تضيع الفرصة الوحيدة من يدها.. الفرصة في جمع أشلاء قلوب محطمة..

رفعت رأسها المبلل بالدموع.. لتواجه عيني والدها الفاحصة.. لم ترد.. كانت عيناها تتحدثان بكل شيء.. وفهم الأب.. فهم هدى دون أن تنطق..

ابتسم الأب برقة ويده تربت على كتفها بحنان بالغ.. ثم همس وكأنه يخشى أن يجرح الصمت:

ـ إنني أتمنى لك السعادة يا ابنتي.. وكل الخير.. كنت أعرف كل شيء.. لذلك قبلت هدية عماد التي أعطاها لي لأسلمها لك.. خذي يا ابنتي فإنك تستحقين كل شيء..

تناولت الكيس من والدها وهي تنظر إليه بتساؤل وكأنها تستأذنه في فتح الهدية..

هز رأسه ببطء وابتسامته الرائعة تتوج شفتيه..

بأصابع مرتجفة، فتحت هدى الكيس.. ولدهشتها الشديدة وجدت فيه لعبة دب كبيرة.. فقط.. نظرت إلى والدها ببلاهة وكأنها لا تفهم شيئاً..

ضحك والدها وهو يقول:

ـ أنت لم تفهمي.. أليس كذلك؟.

همست ونظرات الدهشة تطل من عينيها الجميلتين:

ـ يبدو الأمر كدعابة.. أو..

قاطعها والدها قائلاً:

ـ لا يا هدى.. إنه ليس دعابة.. إن لهذا قصة بسيطة.. فقد زارني عماد اليوم في مكتبي وطلب مني أن نتحدث سوياً في الخارج.. فأخذته وأخذنا نتمشى في الشارع العمومي أمام المكتب بعيداً عن ضجة الموظفين.. وتحدثنا طويلاً في موضوعك.. وسألني عن سبب انفصالك عن زوجك سالم، فأخبرته بأن سالم كان يرفض وجود جابر في حياتك..

فلم يفعل عماد أكثر من أنه عرج على محل الألعاب الكبير واختار أجمل ما فيه هدية لجابر.. وقال لي.. قل لهدى بأنني سأعامل جابر كما لو كان ابني بالضبط.. سأحبه كما أحب ابنتي عهود.. فقبلت منه هذه الهدية..

فهمت يا هدى..

نكست هدى رأسها بخجل.. وقد امتلأ قلبها بحب جارف لم تحس له مثيلاً من قبل..

وزغردت أحاسيسها فرحاً وحبوراً.. فالطير عاد إلى عشه.. والحبيب المهاجر عاد إلى موطنه الحقيقي إلى جنته الموعودة..

* * *

في غابة كثيفة الأشجار.. والسواد يظلل كل شيء ويحجب أشعة الشمس الذهبية.. وقفت هدى إلى جوار عماد يتضاحكان بمرح.. وفجأة يأتي جابر.. إنه يمشي.. غريبة.. ويقفز بينهما في حركة غريبة.. تجعلهما يسقطان أرضاً.. كل منهما في جهة.. ثم يركض جابر مبتعداً لتنتشله طيور بيضاء إلى حيث لا أحد يعلم..

أفاقت هدى من نومها، العرق يتصبب من جسدها بغزارة.. كادت تصرخ فزعة.. يا لهذا الكابوس الرهيب الذي يلاحقها في الأيام الأخيرة.. ترى ما معناه؟ وإلى ماذا سيصير؟

أشعلت المصباح الكهربائي لتبدد ظلام الحجرة.. وألقت نظرة عابرة إلى الساعة المعلقة في صدر الحجرة.. هتفت بدهشة:

" يا إلهي.. الساعة الآن الرابعة صباحاً".

غرقت في تأملاتها العجيبة.. في شن هذا الحلم المفزع.. كل يوم يتكرر على نفس هذه الصورة الغريبة.. هي وعماد.. ثم يأتي جابر.. إنه يمشي في الحلم..

ثم أغمضت عينيها وهي تدعو اللّه أن يتحقق الحلم.. بأن يمشي جابر كما كان يمشي في الحلم الغريب.. شخصت بصرها إلى السقف.. فاحتلت صورة عماد ذاكرتها.. إنها ستزف إليه بعد ثلاثة أيام فقط.. ثلاثة أيام وتكون مع عماد في كل لحظة.. عماد حلمها القديم المتجدد..

لقد اكتشفت أشياء كثيرة خلال أيام خطبتها إلى عماد..

اكتشفت إنه إنسان.. رقيق.. حساس.. ومجنون بحبها.. لم تتصور أن هناك شخصاً يحبها إلى هذه الدرجة الجنونية..

لقد طفح إحساسها بالسعادة إلى درجة التعاسة.. أمعقول هذا الذي يحدث في حياتها؟ سعادة خالصة.. حب.. وتفاهم.. وإخلاص.. وحتى جابر تعلق بعماد وأصبح يحبه أكثر منها..

وعماد الإنسان الرقيق المتفهم.. رفض بشدة فكرة إنتقال جابر إلى دار المعاقين.. وأبى إلا أن يعيش معهما في البيت..

إن هدى تذكر المشادة التي حدثت بينها وبين عماد في ذلك اليوم.. فقد أسعدها وأدهشها في الوقت نفسه.. هذا الحب المتبادل بين زوجها المقبل وطفلها.. مما أجبرها على أن تسأل "عماد" بخجل:

ـ عماد.. ألا تعتقد.. أعني.. هل ستستمر تحب جابر بهذا القدر حتى بعد زواجنا؟.

غضب عماد.. وتعكرت ملامح وجهه الصافي وهو يقول:

ـ إنني لا أصدق أن هذا تفكيرك أنت يا هدى.. إنني لا أحب جابر لمصلحة شخصية أو تقرباً منك، فأنا أعشق الأطفال.. وأحبهم أكثر من أي شيء آخر في الدنيا.. لا لشيء سوى أنهم أطفال.. وعموماً الطفل كائن بريء يحب من يحبه ويكره من يكرهه.. فاسألي جابر نفس هذا السؤال إذا كان يحبني بشكل مؤقت.. وثقي أن جوابه سيكون جوابي نفسه.. ابتسمت هدى له برقة وكأنها نادمة ثم قالت:

ـ آسفة يا عماد.. أنا لم أقصد ذلك.. ولكن.. كل ما في الأمر.. أنني أصبحت خائفة.. خائفة من كل شيء.. ولا أثق في أي شيء..

همس عماد:

ـ حتى في أنا؟.

ابتسمت بعذوبة وهي تقول:

ـ طبعاً لا..

أفاقت هدى من أفكارها على صوت الأذان.. أذان الفجر.. فأطرقت لحظات تستمع إلى صوت الأذان وكأنه مس شغاف قلبها.. وبدد خوفها من المجهول.. الذي ترهبه أكثر من أي شيء آخر.. وكأن الدنيا تضن عليها بهذه السعادة.. فلا بد أن يتبعها تعاسة محضة..

نهضت وهي تطرد هواجسها الكئيبة.. يجب أن تفرح.. أن تشكر اللّه.. أن تحمده على هذه النعمة.. فخلال أيام سوف تتحقق أمنيتها.. سوف

تزف إلى حبيبها الذي قضت العمر كله تنتظره.. بعد صلاة الفجر أخلدت إلى النوم.. ولم تفق إلا على زغاريد وضحك..

فتحت عينيها لتجد صديقتها فاطمة واقفة أمام سريرها وهي تقول:

ـ هيا إنهضي يا عروس.. يجب أن تتعودي على النهوض مبكراً في الصباح، وإلا ألقاك عريسك في الشارع..

ابتسمت هدى وهي تتمطى.. ثم وكأنها تذكرت فجأة قالت لفاطمة:

ـ فاطمة.. أنا لم أخبرك بعد.. هناك حلم يتكرر كل ليلة.. حلم غريب.. أرى فيه نفسي أنا وعماد.. ثم يأتي جابر وهو يمشي ويقفز في وسطنا لنسقط أنا وعماد متفرقين..

هتفت فاطمة ضاحكة:

ـ إنها أحلام العروس.. وتفسيرها.. إنك تتمنين أن تجتمعي بعماد بأسرع وقت ممكن.. أليس كذلك؟

ضحكت هدى وهي تقول:

ـ يا لك من إنسانة ماكرة.. ألا.. أين رنا.. هل أحضرتيها معك.. أم لا؟ ثم كيف صعدت إلى حجرتي؟.

ابتسمت فاطمة قائلة:

ـ إذا لم تريدينني فسوف أنزل.. وعموماً أنا وحماتي ورنا في الصالون تحت.. إلى اللقاء.. هيا إلبسي وأنزلي..

قالت هدى:

ـ حسناً.. سألحق بكم بعد قليل..

* * *

في فندق ميرديان الكويت.. ازدانت صالة الأفراح الكبرى بالزهور الجميلة.. واكتظت الصالة بالنسوة المتأنقات.. في مهرجان رائع من

الألوان والموديلات الراقية الأنيقة.. وكل فتاة ترمق الأخرى بغيظ وحسد.. حتى قدمت العروس..

حبست الموجودات أنفاسهن مبهورات بجمالها.. فقد كان جمال هدى تلك الليلة أكثر من رائع بدت كحورية خرجت من إحدى القصص الخرافية.. احتلت مقعدها المعبق برائحة العود، والبخور ومن حولها اصطفت الفتيات الصغيرات في ملابسهن البيضاء، وكأنهن طيور بيضاء صغيرة تحف بموكب السعادة..

دخل عماد بقامته المهيبة.. ووسامته المشعة.. ابتسم لهدى وجلس إلى جوارها.. وأخذا يرمقان بعضهما بحب ولهفة.. وبدوا كما لو كانا تحرسهما أعين السماء..

وبدأ الرقص.. اعتذرت تهاني شقيقة عماد، لأنها حامل في الأشهر الأولى.. فرقصت نورة شقيقته الكبرى.. وفي لحظة خارج الزمن.. ارتفع صراخ من مكان ما في القاعة..

التفتت هدى بتوجس، وقد بدأ قلبها يحدثها بشيء.. أمسك عماد يدها بقوة وكأنه يحميها من شرور الدنيا.. ولكن ارتفعت الصرخة حتى أصبحت ضجيجاً.. ضجيجاً يصم الآذان.. مما أحدث جلبة في جو العرس الرومانسي.. صرخت إحدى الموجودات بشفقة:

- جابر ابن العروس.. لقد مات..

دارت الدنيا بهدى.. ودار معها كل شيء.. أحست بأن كل شيء يتراقص أمام عينيها على إيقاع دقات قلبها السريعة..

أفاق عماد من الصدمة المروعة التي هزت كيانه.. فقفز من مقعده بسرعة يستفسر عن صحة هذا الخبر، ففوجيء بالبكاء والعويل.. وصوت لم يتبين صاحبه يقول له:

- لقد أصيب جابر بتشنج حاد.. أدى إلى موته.. ولم تفلح محاولات وجهود الأطباء في إعادة الحياة إليه..

التفت إلى هدى فألفاها قد خرت صريعة على الأرض فاقدة الوعي.. والنسوة من حولها يحاولن إفاقتها وبعضهن يحاولن تهدئة والدتها المفجوعة..

وهكذا تحول العرس إلى مأتم في لحظة واحدة.. وتحول الفرح إلى عزاء بقدرة قادر.. وباتت هدى ليلتها في المستشفى بدلاً من عشها الهادىء الذي عاشت سنين طويلة تحلم به..

جلس عماد مرتبكاً.. يكاد الحرج يقضي على ما تبقى من إرادته.. وكرر سؤاله للمرة العشرين:

ـ وكيف هدى الآن يا عمي؟ أتمنى أن تكون في حالة طيبة..

هز الأب رأسه بأسى وهو يقول:

ـ الحمد للّه يا عماد.. ولكنها ما زالت حتى الآن تنتابها نوبات شديدة الهياج.. أعذرها يا بني فلم يمض على موت جابر سوى عشرة أيام.. ودموعها لم تجف بعد..

تنحنح عماد وكأنه يبحث عن صوته الذي هرب منه.. تردد قبل أن يقول:

ـ أعرف يا عمي.. أعرف.. وأنا خير من يعذرها.. ولكن.. أقصد..

قاطعه الأب وهو ينظر إليه بإشفاق:

ـ أفهم حيرتك.. إنك تريد أن تعرف لماذا هي ترفض رؤيتك ومحادثتك.. أليس كذلك؟

إبتلع عماد ريقه بصعوبة وهو يقول:

ـ بلى يا عمي.. بالضبط هذا هو ما يحيرني.. فإنني زوجها على سنة اللّه ورسوله.. ولماذا ترفض لقائي.. والجلوس معي.. لماذا أصبحت تكرهني؟.

حدجه الأب بنظرة عتاب وهو يقول:

- لا يا عماد.. لا يا بني.. لا تحكم على هدى وأنت لم تقابلها بعد.. لو كانت تكرهك لما أقدمت على الإرتباط بك.. ولكنها مصابة باكتئاب نفسي شديد بعد موت ابنها وترفض رؤية أحد أياً كان..

همس عماد بصوت خافت:

- أياً كان.. حتى أنا.. زوجها وحبيبها؟.

ربت الأب على كتفه وهو يقول:

- ألتمس لها العذر يا بني.. فإنها أم ثكلى..

إستأذن عماد بالإنصراف وهو متردد.. وبل أن يخرج التفت إلى الأب قائلاً:

- أتمنى يا عمي بأن تحاول إقناع هدى بأن أراها.. ولو لبضع دقائق..

ابتسم الأب برقة ثم قال:

- إطمئن يا عماد.. سأحاول إقناعها بذلك.. وستراها قريباً إن شاء اللّـه.. فقط لا تتعجل الأمور..

أومأ عماد برأسه ثم خرج.. وفور خروجه دخلت هدى على والدها في حجرة الجلوس..

لقد تغيرت كثيراً عن ذي قبل.. تحولت إلى إنسانة أخرى.. إنسانة محطمة.. يائسة.. تعيسة.. عيونها محمرة من كثرة البكاء.. ووجهها أصفر ذابل شاحب كوجوه الموتى.. وخطواتها بطيئة متعبة.. وكأنها تساق إلى حتفها.. وجسدها أصبح هزيلاً ناحلاً.. كأنه لا يقوى على تحمل الوقوف..

ألقت بجسدها المنهك على أقرب مقعد.. نهض والدها من فوره يسندها.. ربت على شعرها بحرارة وهو يقول مرائياً:

- إنك تبدين في أحسن حال يا هدى.. لقد تحسنت كثيراً يا ابنتي..

تمتمت هدى بكلام لم يفهمه والدها.. ثم نظرت إليه نظرة قوية.. حادة.. إن عينيها هما الشيء الوحيد الذي بقي حياً فيها لم يمت.. بل على

العكس لقد ازداد بريقاً ولمعاناً.. وكأنهما قد امتصا كل رحيق الحياة من جسدها الذابل..

همست بصوت كالفحيح:

ـ أبي.. عذراً لتطفلي.. ولكني سمعت كل ما دار بينك وبين عماد ولم أشأ أن أتدخل فأحرجك.. ولكنني.. أريد أن أرى عماد.. الآن.. وفوراً..

نظر إليها والدها بدهشة، وكأنه يشك في قواها العقلية.. تمالك نفسه وهو يقول لها بهدوء:

ـ ولكن هل أنت مستعدة يا ابنتي لهذا اللقاء؟.

ابتسمت هدى ابتسامة غريبة وهي تقول:

ـ تمام الإستعداد..

اتجهت نظرات والدها إلى جلبابها الأسود القديم.. وشعرها المهوش من غير ترتيب ووجهها الخالي من المساحيق.. ثم قال بإشفاق:

ـ أقصد.. هل ستقابلينه بهذا الشكل؟ لا تنسي بأنك ما زلت عروساً.. رغم كل شيء..

اغرورقت عيناها بالدموع.. هتفت بحدة:

ـ أريده أن يراني كما أنا..

ثم تابعت باستعطاف:

ـ أرجوك يا أبي.. أرجوك.. أريد أن أرى "عماد" الآن..

نهض والدها واقفاً.. ثم اتجه إلى جهاز الهاتف.. وبعد بضع كلمات في الهاتف وقف أمامها قائلاً:

سيكون عماد هنا خلال دقائق.. هيا يا ابنتي استعدي لزوجك حسب قدرتك.. فليس من اللائق أن يراك هكذا مهما يكن الأمر..

نظرت إلى والدها من خلال دموعها ثم قالت:

ـ أبي.. ارحمني.. لا أستطيع..

وبعد خمس دقائق فقط.. دخل عماد.. وقف ينظر إليها بذهول.. وكأنه لا يصدق بأن هدى الفتاة الجميلة التي تشع بالحيوية والمرح ممكن أن تكون هي هذه التي يقف أمامها.. إنها شبح امرأة.. تقدم إليها وأمسك يديها برقة وكأنه يخشى أن يخدشهما..

تنحنح الأب وهو يقول:

ـ استأذن أنا.. لدي موعد مهم..

وفور خروج الأب.. اقترب منها عماد وهو يقول:

ـ يجب أن تفيقي يا هدى.. أن تنتبهي لنفسك.. أنت ما زلت شابة.. والحياة لم تنته بعد.. إنك يا هد..

قاطعته بحدة:

ـ عماد.. أرجوك اسمعني.. أنا التي طلبت أن أراك..

أطرق برأسه صامتاً بعد أن همس:

ـ تفضلي..

رفعت رأسها.. ثم تنفست بعمق وكأنها تريد أن تخرج صدرها من جسدها.. وأخيراً.. بعد صمت دام عدة دقائق..

قالت بنبرات واثقة:

ـ عماد.. أرجوك.. طلقني..

نظر إليها بسرعة وكأنه لا يصدق أذنيه.. وكأنه يطلب منها أن تعيد ما قالته.. استجابت لرجاء عينيه المتوسلتين وقالت:

ـ قلت لك.. طلقني..

تلألأت الدموع في عينيه وهو يهتف:

ـ لماذا..؟

بدت رابطة الجأش وهي تقول:

ـ لقد فكرت كثيراً.. عشت أياماً رهيبة.. قسوت على نفسي كثيراً.. وحاكمتها كثيراً.. ولكنني في النهاية توصلت إلى قرار..

عماد.. أرجوك افهمني.. لا أنكر أنني أحبك وأحببتك دائماً.. ربما قبل أن تحبني أنت.. ولكن حياتنا محكوم عليها بالفشل.. وقد تأكدت من هذا.. فأنا والسعادة بيننا قطيعة دائمة ما أن أمسكها بيدي حتى تهرب مني.. وعرفت هذا من خلال حياتي السابقة.. ولن تكون أحسن حظاً من غيرك.. ألم تشعر.. ألم تر الحكمة.. لقد مات جابر ليلة زفافنا.. ما معنى هذا ما مغزاه.. معناه أن زواجنا شؤم من أوله..

صرخ عماد بوجهها:

ـ هذا قدر.. ومكتوب.. وليس لعبة حظ.. لقد شاء اللّه هذا.. ويجب أن نرضخ لمشيئته ونرضى بالمكتوب.. أنت إنسانة مؤمنة يا هدى.. فلماذا هذا التشاؤم والسخط على إرادة اللّه إنني أعذرك.. وسأترك لك فرصة.. شهر.. شهرين.. سنة.. حتى تراجعي نفسك..

وتفكري جيداً.. إنك..

صرخت فيه مقاطعة:

ـ عماد.. أرجوك.. هذا قراري النهائي ولن أتراجع عنه أبداً.. أعرف بأنني سأتعذب.. وسأبكي.. وسأحزن كثيراً.. ولكن هذا أفضل من أن أعذبك معي.. فتكرهني طوال حياتك..

دمعت عينا عماد وهو يقول بأسى..

ـ أنا لن أكرهك أبداً.. أنا أحبك.. أحبك يا هدى.. أتفهمين هذا.. أحبك..

همست هدى:

ـ إذا كنت تحبني حقاً.. فطلقني.. أرجوك يا عماد.. من أجلي طلقني.. بحق حبنا الكبير بحق أحلامنا الحلوة.. طلقني.. طلقني..

وأجهشت بالبكاء.. إنهارت في لحظة واحدة..

شد عماد على يدها.. فسحبتها منه بعنف..

حتى قال عماد:

- حسناً يا هدى سأفعل كما تريدين.. ولكن ثقي بأنني سأنتظرك.. سأنتظرك دائماً أن تعودي لي.. ولن أنساك أبداً..

ثم أردف بعد هنيهة صمت لا يقطعه سوى بكاؤها:

- ستصلك ورقة طلاقك غداً إن شاء اللّـه..

رفعت إليه وجهها المبلل بالدموع ثم همست:

- قلها الآن.. أرجوك..

مسح دمعة فرت من عينيه ثم قال بأسى:

- هدى.. أنت.. طالق..

في الوقت نفسه الذي دخل فيه والد هدى إلى البيت.. وما أن سـمع هذه الجملة الأخيرة.. حتى أسرع إلى هدى يضمها بحنان بين ذراعيه وهي تبكي بحرقة.. نظر والد هدى إلى عماد بتساؤل:

فأجاب الأخير وعيناه مبللتان بالدموع:

- هي أرادت ذلك..

* * *